عبد السلام ياسين

الإسلام

وتحدي الماركسية اللينينية




الإسلام
وتحدي الماركسية اللينينية



جميع الحقوق محفوظة ©

الكتاب: الإسلام وتحدي الماركسية اللينينية

تأليف: عبد السلام ياسين

الطبعة الثانية: 1444هـ/2023م

الرقم الدولي: 978-605-73038-9-9

الطباعة والنشر: دار إقدام للطباعة والنشر

عبد السلام ياسين



وتحدي الماركسية اللينينية

الطبعة الثانية



تقديم: الطريق المعتمة

في برنامج المسلمين الفاتحين، كما عرضه الناطق باسمهم في بساط رستم، إخراج الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام. كانت هناك خطة واضحة، كان هناك منهاج مبسط، لكنه كان واضحا وعمليا، وقابلا للتنفيذ، ومنفذا بالفعل. لعل القدرة الفعلية على إنجازه كانت من أهم عوامل وضوحه. ولا شك أن مصدره السماوي، وأثر الوحي الطري في قلوب تلك الأجيال وعقولها، والتربية النبوية، والدولة الخلافية، والقيادة الفذة على يد أمثال خالد وأبي عبيدة رضي الله عنهما كانت الأسس المتينة لتلك القدرة.

كانت واضحة أمامهم الطريق، كان المسؤول العربي المؤمن المجاهد، يتقدم على الصراط المستقيم واثقا بالله عز وجل وبما هو عليه من جهاد ما دام مستمسكا بالوحي، ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]. هذا الصراط المستقيم كان عين المنهاج، مرتبا كما ورد ترتيب العقبة المنهوج عليها: فك رقبة، إطعام يتيم ومسكين، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. ورِبعيّ وإخوانه كانوا هم الجماعة المؤمنة المتواصية، متشبعين بأن الله تعالى ابتعثهم ليفكوا رقاب العباد ويُحلوا سيادة الله في الأرض وفي الشعوب محل سيادة المستعبدين للخلق، ويُحلوا عدل الإسلام محل جور الأديان.

(1) سورة الزخرف، الآية: 43.

ثم ما لبثت تلك الطريق أن تعتمت، أول ما تعتم منها الحكم، ومن فساد الحكم إلى طاعة الحاكم طاعة عمياء، ومن ذلك إلى خضوع الرقاب لغير الله، ومن ذلك إلى فشو الجور ونشوء الطبقية مع يقظة عبية الجاهلية، ومن ذلك إلى التفتت التاريخي للمجتمع الإسلامي. في هذه الأربعة سطور طويت أربعة عشر قرنا من تاريخنا، فها نحن لا وضوح لدينا لذلك المنهاج ولصيغته البرنامجية كما أعلن عنها الجندي المجاهد ربعي رحمه الله.

ما عتم الطريق؟ ما نكر ذكرها في آذاننا؟ ما غير معالمها حتى صرنا تزيغ منا العيون إلى الآفاق الإيديولوجية لترى برقا يؤذن بغيث الحرية والعدل؟ نستأنس بتلك الشعارات الهطالة المدوية: «قومية، وحدة، اشتراكية». ونزداد إليها إصغاء وتحديقا كلما توغل في جسمنا فعل الحكم الطاغوتي الطبقي الظالم؟

لا تهدأ الفطرة الإنسانية المجبولة على حب الحرية والعدل أو تجد طريقا إليهما، على الوضوح إن كان، وعلى الطريق المعتمة إن لزم. الفقر يطلب الغنى كما تطلب العبودية الحرية. الحاجة الفطرية تدفع إلى ما يحقق الكرامة الإنسانية. فإن وقف حاجز يمنع المجتمع عن أهداف العدل والحرية، فخرق ذلك الحاجز محتم حتمية الثورة بالنسبة لمجتمع المسلمين في بداية هذا القرن الخامس عشر المبارك إن شاء الله تعالى.

في جانب النداء الاشتراكي تتعمق الاشتراكية بعد فشل التجربة الناصرية وتتجذر في الأصول الماركسية، أو في الشعارات الماركسية، لتحظى بصفة العلمية، وتأخذ الماركسية مصالحتها التكتيكية مع القومية، وتقترح من بروج عزلتها الإيديولوجية، من المواقع البورجوازية الصغيرة حسب تعبيرهم، الوضوح الماركسي، والطريق الماركسية.

في جانب النداء الإسلامي هبة إيمانية، صحوة في القلوب، تحتاج إلى صحوة فكرية عملية تواكبها وتعززها وتفتح لها الآفاق السياسية. تحتاج إلى عرض لبرنامج إسلامي في التحرير والعدل.

الأرض السياسية التي يقف عليها الاشتراكيون أرض صلبة، قاعدتهم العاطفية التي يتضمنها نداء العدل تتجاوب مع الفطرة البشرية.

فمهما رفعنا نداء الإسلام دون أن نبين البرنامج العدلي أو أجّلنا إعلانه، فالفطرة المظلومة المتمثلة في سواد الأمة وجماهيرها المحقرة المفقرة ستظل حائرة، لا تثق بالصارخين من عزلتهم على الإمبريالية والبورجوازية لعدائهم السافر للإسلام، ولا هي تثق بالإسلاميين لسكوتهم المطبق عن القضية الاجتماعية.

وإن إمامة هذه الجماهير تؤول، لا قدر الله، لمنافقين ثوريين يأخذون من الإسلام شعار الإيمان، ومن الماركسية شعار الثورية والعدل، ولعلهم يكونون أذكى من الصنف الماركسي القديم الذي يتلوى في مقولات الإيديولوجية الماركسية التي لا يهضمها الشعب المسلم ولو جاءت مبسطة سوقية.

لا بد من مخرج لمآزق الأمة، لا بد من حل لمشاكل الظلم الطبقي، والتبعية للدول المستكبرة، والتخلف الاقتصادي، وهضم كرامة الإنسان، إما على الطريق المستقيم، وإما على الطريق المعتم، عندما تشتد الأزمة بالأمة، وعندما تتجمع طاقات السخط، ويقف المجتمع على الهاوية، تكون الدولة والغلبة والفرصة لمن يتقدم بجرأة ووضوح، وقدرة على التنفيذ، ببرنامج العدل في مقدمات بنوده. في الإنسان شرارة وامضة تتألق إذا ذكر العدل، وقد يقتحم الإنسان كل الظلمات على ضوء هذا الألق وحده، يعوض به كل هدي وكل نور.

يقول جان جوريس الاشتراكي الفرنسي الشهير: «حتى لو أطفأ الاشتراكيون للحظة كل نجوم السماء سأمشي معهم على الطريق المعتمة التي تؤدي إلى العدل، تلك الشرارة الإلهية التي ستكفي لإشعال كل الشموس في كل أعالي الفضاء».

لا يتكلم الماركسيون هذه اللغة المجنحة، لكن الشاعرية المرهفة والحس الإنساني الذي نطق عنه الاشتراكي الحالم جوريس يعبران عن الفطرة البشرية، عن التوقان الجِبلّي للعدل، وهما مخزن الطاقة الثورية التي يتقن الماركسيون تفجيرها من خلال العرض الإيديولوجي «العلمي» الموضوعي.

جوريس يشير من بعيد إلى الطلاق العلماني الذي تمخض عنه تاريخ أوروبا بعبارة «إطفاء نجوم السماء» ويشير إلى تعويض الدين السماوي المفقود بالدين الأرضي العدلي بعبارة «إشعال الشموس في أعالي الفضاء».

بالشعر أو بدون الشعر لا يتعايش العدل الماركسي أبدا مع الدين. فإن عجز الإسلاميون، لا قدر الله، عن عرض برنامج العدل الإسلامي وتنفيذه، فيوشك أن يشعل غيرهم فوانيس النفاق كما فعل «مجاهدو خلق» في إيران وكما تخطط إيديولوجية «جغرافية الكلام»، ليصلوا إلى مقادة الحكم باسم العدل فيطفئوا نجوم الهداية وشموس الصراط المستقيم باسم العلمانية الثورية والعلمية.

في المسألة الاجتماعية تكمن أسباب الزيغ والانحراف، في وجود الفقر في جانب والغنى في جانب، في تركب الظلم السياسي على التفاوت الطبقي وتولد هذا من ذاك وفي المسألة الاجتماعية تكمن الغيوم المظلمة التي تلبد سماء النفوس والعقول، فتتعتم الطريق وتتقتم.

دعنا من الفلسفة المادية الجدلية، ومن التحليل التاريخي الماركسي إلى حين. ولنضع بين يدي حديثنا عن الماركسية ومع الماركسيين معلمة من معالم الهدي النبوي لنشرف منها على أرض المعركة بين الحق والباطل، هذه الأرض السياسية النفسية الفكرية الضاربة في أعماق الفطرة الإنسانية، المتجلية في الغضب على الظلم، ذلك الغضب الذي يزيغ القلوب ويقلب موازين العقول، كما يزيغها الاستكبار الطبقي أصل البلاء.

يقول أبو الدرداء صاحب المصطفى ﷺ فيما أخرجه ابن ماجة عنه رضي الله عنه بسند حسن: «خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نذكر الفقر ونتخوفه، فقال: آلفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده، لتصبّن عليكم الدنيا صبّا، حتى لا يُزيغ قلبَ أحدِكم إزاغةً إلا هِيّهْ! وايم الله! لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء». فقال ابو الدرداء: «صدق والله رسول الله ﷺ، تركتنا والله على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء».

إنها معضلة ثلاثية الحد قوية التحدي أمام الأمة الإسلامية، اختيار حاسم وملح، اختيار بين إسلام صوري أمريكي يغطي بجلبابه الطبقية الشنيعة والتبعية واستقرار اليهود في القدس وأمنهم، وبين عدالة اشتراكية ماركسية روسية تعادي الإسلام وتغطي تبعية مثل تلك، وطبقية لا تخجل أمام تلك، وأمناً لا يقل لإسرائيل ولمصالح الروس عن ذاك. والخيار الثالث الصعب هو خيار المحجة البيضاء التي تركهم عليها رسول الله ﷺ، واعترف بوضوحها أبو الدرداء، واعتز باتباعها عمر، وعرض برنامجها، بوضوح ساذج من الصنعة الفلسفية ناصع، ربعي بن عامر رضي الله عنهم أجمعين.

سلا، في السبت 15 رمضان 1406

بين الإلحاد والثورة

عندما نرفض الماركسية قبل أي سؤال، عندما نرفضها بالدافع الفطري الذي يقززنا من الإلحاد المعلن، ونعاديها عداء مبدئيا بالجملة كما تعادي هي الإسلام بالجملة، ألا نفوت على أنفسنا فرصا لنشر الدعوة؟ ألا نضيع مناسبة لدحض الباطل بحجة الحق؟

وعندما نسكت عن النقطة القوية في النداء الشيوعي، وهي المسألة الاجتماعية، ودعوى نصرة الطبقة المسحوقة، أو نقتضب الكلام عنها اتكالا على بديهية كون العدل من أسس الإسلام ثم لا نفصل كما يفصلون، ولا نبرز المشكلة كما يبرزون، ولا نضع مسألة العدل في مكانها البارز من البرنامج الإسلامي كما يضعون، ألسنا بذلك ننسحب من الموقع الاستراتيجي الأهم على الساحة الأرضية حيث يحسم الصراع على إقناع الجماهير، وبالتالي حيث يحسم الشوط الأول والأخير في الصراع على السلطة، أي على إمامة الأمة وقيادتها؟

للماركسية وجهان في الاعتبار، هي عملة واحدة لا تكتمل قيمتها ولا يتم معناها إلا بهما: الإلحاد والثورة. فإذا نحن تعاملنا مع الماركسية على أنها مذهب إلحادي وأخزينا شيطانها دون أن نعرف أولا، ونناقش ثانيا، وننتقد ثالثا برنامجها الثوري شكلا ومضمونا، إيجابا وسلبا، فإن الخصم العدو لن يجد صعوبة في إلصاق تهمة خطيرة بالإسلام ودعاته، هي أن الإسلام كان ولايزال

أفيونا للشعوب يعادي الماركسية لثوريتها ويغطي عداءه للتقدمية والحرية بالدفاع عن العقيدة.

في أذن الجائع لا يسلك إلا صوت يبشر بالخبر، في وعي المقهور المحقور لا يتضح إلا برهان الحرية، في الأثر: «كاد الفقر أن يكون كفرا»[1]. فمن كان شغل يومه ونهاره هم القوت، والمأوى، والكسب والشغل، والدين، ومرض الأطفال، ومصير الأسرة، لن يستمع لعرض المبادئ العليا ولو كانت دينا يؤمن به، لا وقت له، لا استعداد، لا مناسبة. ويأتيه النقابي الماركسي، والمحرك الإيديولوجي يعرض عليه حالته الاجتماعية، ويعلمه من هم أعداؤه الطبقيون كيف استغلوه، كيف ابتزوا رزقه، كيف أكلوا عرق جبينه، كيف أفقروا أسرته كيف اضطهدوه وسفكوا دمه، كيف يجب أن يتكتل مع من يدافع عن حقه، ويقدم الخدمات، كيف يثور على الظلم. لن تسمع تلك الآذان البريئة حديثا عن الدين في ذلك السياق المعاشي، لن يطرق ذلك الوعي الساذج ما يخدش الدين في وعود التحرر الذي يتعطش إليه المقهور المحقور.

فإذا أتيت يا داعي الله بالوعظ السامي وغزوت تلك الأذن وذلك الوعي المشغولين بالفقر والتعاسة والهم والمقهورية بقوارع الزجر أو لوامع البيان دون أن تذكر أمل الشفاء لمريضك، دون أن تصف العلاج، دون أن ترد المرض إلى أسبابه، دون أن تواسي، دون أن تقف بجانب من يحتاج إلى وقفتك، دون أن تربط مصائر الناس في الآخرة بمصائرهم في الدنيا، فلا تعجب إن غلب الفقر ولواذعُه الإيمانَ ونوازعَه.

(1) مشهور من كلام الإمام علي كرم الله وجهه. وقد رفع في رواية.

ليس الوعظ الفاعل في المجتمع المسلم المعاصر المتحرك بغليان الإعلام والدعايات الإيديولوجية كالوعظ في المجتمع الساكن، لا يمكن أن نجذب الأمة إلينا إن اكتفينا بالكلمة المحتشمة عن خوض هموم الناس.

إن عامة الناس لا تتحرك بالحافز المعنوي الصرف، أعني أن الإيمان إن دعونا إليه متجردين عن هموم الناس، فلن يتبعنا إلا القلة المكفية في أرزاقها، ولن يكون ذلك المجتمع شيئا بعيدا عن الدروشة. جعل الله الحافز المادي دعامة من دعائم الإيمان، لا اكتمال للإيمان في نشوئه وحركته إلا بها. في مقدمة خطوات اقتحام العقبة فك رقبة، وإطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة: أرأيت هذا الحنو على حالة المقهور والجائع؟ أرأيت التهمم باليوم الشديد والمسغبة الشاغلة؟

هنا في هذه النقطة يحسم الصراع السياسي بيننا وبين الماركسية المادية الشديدة الالتصاق بالهم اليومي للعامل والبائس، بالاقتصاد، بالإنتاج، بالتوزيع، بمعرفة الطبقة المستغلة الظالمة، بالدلالة على الوسيلة الثورية العملية الإجرائية للتخلص من الظالمين. هذا أولا. ومن وسائل إقناعنا الثانوية، والثانوية فقط بالنسبة لعامة الناس، فضح إلحاد الماركسيين وعدائهم للإسلام. فإن عكسنا الأولوية السياسية هذه، إن عاكسنا هذه الحكمة التعليمية الإسلامية التي تجعل العطاء للمؤلفة قلوبهم مقدمة للدعوة ومفتاحا للقلب، فأخلق بنا أن نبقى منزوين عاجزين عن الفعل المؤثر في التاريخ.

التفسير والتغيير

تتقدم الإيديولوجية الماركسية على أنها تفسير للواقع الاجتماعي تفسيرا علميا يستند لتجارب التاريخ. ومن التفسير العلمي إلى التغيير مباشرة، ومن جملة التفسير الماركسي أن المؤسسات الدينية كانت دائما حليفا للثورة المضادة. وبما أن الإسلام في عصرنا وقبله استعمله الظالمون ويستعملونه لإسكات صوت المظلوم الجائع الضائع، وإلهاء العامة عن المطالبة بالإنصاف، فكيف نزحزح عن أكتافنا وزر التهمة بأن الإسلاميين، ككل المؤسسات الدينية، كتائب في جيش الثورة المضادة، لاسيما إن سكتنا عن الهم الذي يلهب الأكباد، أو اكتفينا بالتنديد اللفظي الهيّاب.

تتقدم الماركسية على أنها تفسير لمصير المجتمعات البشرية، وتطورها، وظروفها العالمية، وآفاقها المستقبلية. والتفسير يخاطب العقل ولا يحرك الطاقات الإرادية. التفسير «الموضوعي» «العلمي» الذي تقترحه الماركسية للتاريخ ومصير المجتمعات البشرية «بارد» بالقصد كما ينبغي للعرض الموضوعي العلمي الذي يلاحظ ويستنتج بلا انفعال، بلا تحيز، بلا تشنج.

وتتمثل الدراية الماركسية في اعتماد الإقناع الفكري الهادئ لتتخذه منصة يأتيها الطابق الدافع للصاروخ الثوري من تحتها فتتفجر الطاقة وينطلق الهيجان. الانفعال المخفي على مستوى التفسير الفلسفي الإيديولوجي هو نفسه الذي عبر عنه البيان الشيوعي في ختامه «يا عمال العالم اتحدوا!».

يكون الغضب الفطري البشري على الظلم، الغضب المختزن في نفوس المحرومين، الطاقة الفاعلة التي تحمل في ثناياها المبعثرة إمكانيات الثورة.

يأتي الحزب الثوري الماركسي اللينيني، يأتي دعاته من المثقفين والنقابيين المقتنعين فكريا بالمذهب، فيثيرون في الطبقة المحرومة كوامن الحقد، ولواعج الألم، بالتفسير المبسط الدارج الواطئ على بساط الهم اليومي، وهكذا يصنعون آلة التغيير. ألا وهي الكتلة الحزبية المنظمة المصممة.

نتحدث هنا عن الأسلوب الثوري الماركسي في البناء الحزبي والتحريك الجماهيري كما يرسمه المذهب، وكما يمارسه الثوريون مع الاختلافات التكتيكية التي تمليها ظروف الزمان والمكان. من الاختلافات المهمة الطارئة في الميدان انحسار المد الشيوعي في العالم الإسلامي مع شك المسلمين المتزايد في كل تحزب غير إسلامي بعدما انكشف تزوير السياسيين، وانفضحت انتهازيتهم ورعونتهم وعدم جدواهم وتنكرهم لوعودهم بعد وصولهم إلى الحكم. لكن الدعوة الإسلامية لا تستغني أبدا عن دراسة مبادئ الإلحاد الثوري وأساليبه واستراتيجيته الحزبية وتكتيكاته الميدانية، لأن المعركة لا يتوقف مصيرها على ما معك من سلاح ونية وأسلوب فحسب، بل تتوقف، بنفس الأهمية على الأقل، على معرفة نية الخصم وسلاحه وأسلوبه.

إن الماركسية الآن في بلادنا تبحث عن «طريق عربي إلى الاشتراكية».

ولعلها تتلثم بنقاب يعلن أنها غير ما هي، ولعل شعارات جديدة تصنعها لتخفي الإلحاد من معادلتها فتكسب أنصارا مسلمين يوم تعرض عليهم بضاعة إيديولوجية لا تناقض ظاهر الإسلام، لتتمكن بصفتها ممثلا لا بديل له للمحرومين.

تتقلب في أطوار مخاضها إيديولوجية ثورية مواتية لظروف المسلمين الحالية، ظروف تتميز بالصعود السياسي للدعوة الإسلامية. والماركسية هي

المذهب المسلح فكريا للغلبة في صنع تلك الإيديولوجية المنافسة للإسلام، المعادية له المراوغة لعواطف الجماهير المسلمة. في مطبخ المثقفين الثوريين التقدميين يُصطنع من عناصر القومية والوحدة والاشتراكية صنيع يريد أن يكون بديل الغد لبرنامج الإسلام. فنخشى أن نؤتى من قبل سكوتنا الجزئي عن أهم ما أمر به الله عز وجل، بتكرار وإلحاح، في كتابه العزيز، وهو العدل والإحسان.

يزداد الثوريون في بلاد الإسلام، بعد تراكم خيبات أمل الأمة في انقلاباتهم القومية التقدمية الاشتراكية، وبعد ثورة إيران الإسلامية سددها الله ووقاها العثرات، يقيناً بأن الثورة إما أن تكون إسلامية أو لا تكون. فترى طوائف العلمانيين يتسابقون إلى رفع كلمة الإسلام.

كان سوكارنو الغابر يقول: «أنا أؤمن بمحمد في السماء وبماركس في الأرض» ولفق ايديلوجية «البانطاسيلا» من مبادئ ملتقطة من ديمقراطية الليبراليين، وقومية القوميين، واشتراكية الماركسيين، وأدمج حرية التدين لتكون نصيب إيمانه السماوي بمحمد. وعند رجل شهير، بالماركسية خبير، هو رجاء جارودي، نجد حتى في آخر ما وصلنا من آرائه بعد إسلامه، تمزقا بين الإسلام والماركسية. ما وجد في الماركسية ما ينشده طول حياته، وهو التوفيق بين الألوهية والمادية، ونفخ الروح في التنظيم الاجتماعي ليكون مجتمعا أخويا. فجاء الإسلام يعثر فيه على بغيته. لكنه أعلن مرارا أنه لا يتنازل عن مكتسبات الماركسية. ذاك رجل آخر، من طينة غير طينة سوكارنو الطاغية، لكنه معلق مثله بين الأرض والسماء، نسأل الله له الهداية. ومَن المسؤول عن استمرار تقلب مثله في الآفاق غير أنفسنا، حيث لم نعرف كيف نعرض برنامج الإسلام لمعاصرينا كما عرضه الناطق الفصيح في بساط رستم لمعاصريه؟

الدنيا والآخرة

يلفت نظر المراقبين للصحوة الإسلامية توافد الألوف من المسلمين، خاصة من الشباب، على المساجد لاستماع الخطباء في حركة عفوية متعاظمة. يمكن لملاحظي الظاهرة الإسلامية أن يسجلوا أيضا أن المساجد المقصودة المتسابق إليها قبل غيرها هي المساجد «الحرة» التي يخطب فيها الواعظ الشعبي غير الموظف. وبالاستنتاجات السياسية يمكن للملاحظ أن يصنف الظاهرة الإسلامية مع الظواهر السياسية ويفكر ويقدر أن ما يجذب الشباب إلى المساجد هو التفسير الإسلامي لوضعية الشباب الاجتماعية، والدعوة الضمنية، أو المكتومة، تكاد تفصح، إلى التغيير الثوري.

ظاهر الأمر لا يسمح للملاحظ الأجنبي عن الدعوة، يراقبها عن بعد، بفهم أعمق من هذا. لا يستطيع ذلك الأجنبي أن يدرك البعد الإحيائي للصحوة الإسلامية، البعد العميق الإيماني للنداء المتجدد الذي يسلك في قضية واحدة هم الدنيا وهم الآخرة. أولئك الذين تعلموا من ثقافة الغرب الغازية أن الدين لا مكان له في السياسة أو أن السياسة لا مكان لها في الدين، يسحبون فهمهم العلماني هذا على الإسلام فيخالون أن المساجد «الحرة» أصبحت منابر سياسية.

والحقيقة أن المساجد المسيّسة، أعني التي تفصل هم الدنيا عن هم الآخرة وتخضع للأوامر العلمانية، هي المساجد المدوّلة يستشيط فيها الخطيب الموظف غضبا هوائيا على المنكر دون أن يفسر منابعه، ويركز على

أمر الآخرة متخطيا أمر الدنيا، مرجئا التغيير إلى يوم الحساب، مخدرا الحس الإيماني الجهادي بتعتيم صورة الواقع، وتغطية الظلمة.

تدور الحركة الإسلامية حول المساجد، فالمساجد مجالات لها ثانوية، المساجد أماكن عامة تتصادم فيها جبهة الحق مع جبهة الباطل، ما بين مسجد «حر» ومسجد مدوّل، على مستوى الخطاب الموجه لمن حضر. والدولة العلمانية بدرجة أو بأخرى، بأسلوب أو أسلوب، تعطي الخطيب الحر قيمة وتزايده نفاسة كلما دوّلت مسجدا أو اضطهدت داعيا إلى الله. ذلك الصدام ليس هو المعركة الحاسمة.

الطريق إلى الجماهير الصاعدة مسدود على الحكام المتسلطين، يزداد إغلاقا باطراد، كما هو مسدود على المثقفين. أولئك يظنون أنهم يكسبون تأييدا شعبيا إن هم أحكموا تحصينات القلاع الإسلامية التي احتلها، من عهد مبكر في تاريخنا، الإسلام الرسمي الذي يلهج بمدح الحكام. والآخرون يظنون أنهم ينافسون بنجاح دعوة الإسلام العميقة التي تجد التجاوب العميق بصبغ الاشتراكية، الضرورية اجتماعيا واقتصاديا، بالصبغة القومية، يظنون أن «الطريق العربية» إلى الاشتراكية تفتح لهم تلك الطريق الجماهيرية التي تتحلب لولوجها أفواههم. وإنهم ليزحفون شيئا فشيئا نحو «طريق إسلامية» إلى الاشتراكية.

أريد أن أخلص من هذا إلى أن مجال المعركة الحاسمة بين الحق الذي أنزل على محمد ﷺ وبين باطل العلمانية الحاكمة وباطل الاشتراكية المادية هو نفوس الأمة وعقولها. يخاطب الواعظ الحر الغاضب على المنكر إيمانا وتدينا نفوس الجماهير وعقولها من جانب الحق، من جانب الآخرة، مع نبضة

ثورية تربط هموم الناس بأصول الإيمان، فتجد تجاوبا وحماسا. هذا لا يكفي. لكي نتمكن من إمامة الأمة، يلزمنا أن نُنهِّج الدعوة وننشرها من قنوات أهل المسجد، ليحمل كل واحد وواحدة من المسجد إلى كل تجمع، إلى كل أسرة، إلى كل مرفق من مرافق الحياة، ذلك النداء إلى الله عز وجل، الموجه للإنسان من حيث هو إنسان له حاجاته المادية المباشرة، الشاغلة، قبل إشباعها، عن كل اهتمام آخر. وإنما يحضر المسجد، ويتسابق إلى الخطيب الحر، ويتجاوب مع غضبه على المنكر مسلمون قطعوا على درب الإيمان مراحل، روحانيتهم تجاوزت الجسمانية وانسجمت معها فهي قائدتها. فأين السواد الأعظم من المسلمين الذين هم في قبضة الجسمانية، أو في قبضة الإيديولوجية الرسمية المسجدية، أو في قبضة الدعوة المادية، المتمركسة ضرورة بدرجة أو بأخرى، الاشتراكية القومية الوحدوية.

نعني بتنهيج الدعوة أن نتدرج بالإنسان من موقعه الإنساني، من ظروفه المادية، من تعبه اليومي وكبَده، من هم المأوى والرزق والأمن والضروريات، ليطمئن إلى أن الإسلام وعد بفك الرقاب، أي بتحرير الإنسان من كل عبودية تحقره ولا تكرمه، وعد بإطعام الجائع، بالقضاء على البؤس، بالإنصاف، بالقسمة العادلة للرزق.

في هذه النقطة يتحدانا النضال الاشتراكي، المتمركس بدرجة أو بأخرى لا شيء غير ذلك، على مستوى الوعد. وهم يتبعون في قرارة أنفسهم، وفي أسلوب نضالهم العملي، منهجية التقطيب الماركسي، منهجية صف المجتمع صفين متقابلين، الصف الأسود الإمبريالي يقابله الأحمر الثوري، بعد أن يفرغوا من أمر الآخرة بإنكار كل دين. عندئذ يرفعون الوعد الاشتراكي شمسا وحيدة في سماء المحرومين.

هناك تحدّ ثان هو رسم الطريق إلى التغيير الإسلامي كما هي مرسومة الطريق الثورية الماركسية اللينينية. المسجد مكان لائق للتفسير وقران وعد الدنيا بوعد الآخرة، صالح لتعبئة الطاقات الإسلامية لجهاد التعبئة المعنوية العامة. لكن تنفيذ الإسلام، بدءا من تجنيد حزب الله، إلى خوض الصراع السياسي، إلى الاستيلاء على السلطة، إلى إقامة الدولة الإسلامية على رسوم الجهاز البائد، مكانه خارج مجال المسجد العام.

وفي بناء التنظيم الجهادي القادر على التنفيذ يترصدنا خطر الانحراف إلى الإسلام السياسي. وأعني به أن يصبح العدل غاية مسعانا، نسخر في سبيله الإسلام كوسيلة. أعني أن نستعمل الإسلام كإيديولوجية ثورية نظير ما تستعمل الدولة العلمانية الإسلام كإيديولوجية محافظة. أعني أن ننزلق في تيار العراك مع الخصوم فنتبنى من حيث لا نشعر مواقفهم الفكرية والعملية، معكوسة أو منقحة، فيفقد وعد الآخرة معناه ليترك كل معنى لوعد الدنيا.

يقول الماركسيون: إن الدين يزيغ باهتمام الناس عن مشاكل ما قبل الموت إلى الاهتمام بما بعدها، ويصرف وجهتهم عن مصيرهم الاجتماعي إلى مصير الآخرة. وهكذا يحول الدين بين الناس وبين المطالبة بحياة كريمة والنضال من أجلها. وهكذا تتركز الآمال والجهود على أمر الآخرة، فيتحقق معنى كون الدين أفيونا للشعوب حتى يعتبر التفكير في الدنيا نقصا في الدين، والتعرض لأهل الدنيا، ومنهم الحكام، اشتغالا بما لا يعني.

وينكر الماركسيون البعث والنشور ويتفرغون للدنيا، يطمسون روحانية الإنسان جوابا عن طمس الإيديولوجية الدينية الرسمية جسمانيته. ولا بد أثناء تلاحم حزب الله مع حزب الشيطان، بطوائفه الحاكمة والمعارضة، من سريان دنيوية الصراع إلى مواقع الحافز الإيماني، فحذار أن ينطمس أمر الآخرة. قوم

يستعملون الدين بما يضمن لهم الحفاظ على السلطان. وقوم ينكرون الدين من قرارة أنفسهم وأسلوب عملهم، وإن نافقوا، ليتأتى لهم التسلق إلى السلطان. فكيف نحافظ على التوازن بين وعد الدنيا ووعد الآخرة إيمانا ودعوة، توازنا تكون فيه الدنيا مطية ضرورية للآخرة، لا تصبح الآخرة ووعدها مطية للدنيا؟ وكيف نعارك قوما همهم الدنيا، وحديثهم الدنيا، وفاعليتهم في الدنيا، دون أن يتحول مسار حزب الله عن مطالب الآخرة، ودون أن تكون فاعليته في ساحة الصراع أقل غناء؟ هذا هو السؤال.

كان الفرس لما شهدوا جند الله، من أمثال خالد وأبي عبيدة وربعي الجندي يقولون: «هؤلاء رهبان بالليل فرسان بالنهار!» يعجبون كيف جمع هؤلاء العرب منذ آمنوا بالله وباليوم الآخر، خصلتين متناقضتين في عرف الناس ومألوفهم.

هذا التحول أحدثه الإسلام في العرب بتربية عميقة جعلتهم أوثق بما عند الله عز وجل منهم بما في أيديهم. ولن نتفادى مزالق الإسلام السياسي إلا إن تدرجنا بالإنسان في السلم الكامل المتكامل للعقبة، في اقتحامها. ومرحلة ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[1] هي مرحلة الإيمان، من لم يدخلها ليصونه تواصي إخوته والمرحمة الأخوية اليقظة، بقي عرضة لعاصف الرياح. والله ولي المؤمنين لا إله إلا هو.

(1) سورة البلد، الآية: 17.

الدولة العظمى

تواجه شعوب العالم المتخلف ظروفا شاقة ترسم على آفاق المستقبل المنظور ظلالا قاتمة تدعو إلى اليأس، وتبعث في الوعي الشعبي وفي تطلعات الحكام مزيدا من الطلب الملح للمسلك السياسي والوسائل الاقتصادية الكفيلة بتلبية ضرورات سد العوز والوقاية من الموت جوعا، وضرورات صون حقوق الإنسان الذي تعصره تحت كلكه الأنظمة النكراء المتأرجحة، وضرورات الحد الأدنى من الاستقرار.

وتتخذ إيديولوجيات اليمين الليبرالي وإيديولوجية اليسار الماركسي هذا الوعي المتنامي هدفا لحملاتها. وفي أذن المأخوذ بين أسنان عجلة الأزمة، المختنق المرهق، لا مسلك لكثير من الفكر والفلسفة. الخطاب الإيديولوجي والفلسفة المرتاحة الوازنة ملهاة يجد لممارستها وقتا واستعدادا المثقفون حينما يمارسون وظيفتهم المنعوتة، وهي نقد السياسة واقتراح البدائل. أما الحكام فهمهم اليومي الهاجم الذي لا يتوانى، لأن الحياة لا تنتظر، منصرف إلى مصادر العون، إلى من يقرض، إلى من يلح، إلى من يدعم الطبقة الحاكمة، إلى من يمول تسيير الدولة، إلى من يدفع أجور الموظفين، إلى من يزكي في المحافل الدولية والوسائل الإعلامية.

للمثقف مندوحة كي يتأمل المذاهب ويقارن وينتقد، ومن طبع الشباب الواعي أن يتحمس للثورة، ويطالب بالتغيير الحالي، ويضطرب في الشارع.

لكن الحاكم، مهما كان اقتناعه السابق، ومهما كانت برامجه المعلنة، لا يحتل بؤرةَ اهتمامه، ولا يؤرق لياليَه إلا الالتجاءُ إلى سند قوي غني، والالتصاق به. وعندما توقعه الحاجة العمياء، والاختيار العاجل، أو الاقتراح المنقذ، في أحضان الدولة العظمى، فإنه لن يجد مناصا من تبني الخطاب الإيديولوجي المطابق للجهة الحليفة، والتصريح بالانتماء إليه.

وقوف الدولة العظمى إلى جانب الحكام في العالم المتخلف هو السند العملي للإيديولوجية المطابقة، وباعثها. وتجد حليف روسيا الشيوعية يتبجح بالوثبة إلى الأمام، وبالثورة الفلاحية. وحليف أمريكا يتبجح بالديمقراطية من كونها النظام الوحيد الكفيل بالفاعلية وتعميم الرخاء.

التنمية هي المطلب المرهق للدولة المستضعفة، يرتفع شعارها وعودا على شفاه الحكام، ومحورا لنقاش المثقفين، وهتافا ثوريا في صفوف العاطلين والشباب المتحمسين، وصرخة يائسة من أفواه الجائعين.

ويلتهب خيال كل متطلع تتخذه الدعايات المتنافسة هدفا لها في سوق العرض والطلب عندما يعرض عليه المعسكر الرأسمالي «العينات» الناجحة النموذجية للتنمية: كوريا الجنوبية، الفلبين، تايوان، البرازيل، أو يعرض عليه المعسكر الاشتراكي قفزة فتنام وكوبا والصين.

لم تجد الماركسية هذا النجاح الواسع في أوساط مثقفي العالم المتخلف لخصوصيتها الفلسفية، ولتماسك المذهب، ولصناعة المنهج الثوري المبني على أفكارها. إنما انتشرت هذا الانتشار بفضل نجاح ثورة أكتوبر وقيام دولة عظيمة لها الوزن الثقيل في تاريخ العالم منذ قيامها، لها الوجود الصامد،

والإرادة المناقضة للإمبريالية الرأسمالية، لها القدرة على اتخاذ القرار المفيد للدول المحرومة من دعم العملاق الرأسمالي، لها المصلحة في الدفاع عن استقلال هذه الدول في المحافل الدولية، لها الوسائل لدعم هذا الاستقلال دبلوماسيا وعسكريا.

في المرتبة الثانية فقط بعد أهمية وجود الحليف القوي يأتي الاعتبار المذهبي.

تعطي الدولة العظمى الاشتراكية للأفكار الماركسية النموذج الحي للنظام الاقتصادي السائر المنتج. يعطي تاريخها وتاريخ الثورات الاشتراكية الأخرى مثالا للقفزة السريعة من حالة التخلف إلى حالة النماء فلا يلبث المتطلع أن يقتنع أن الاشتراكية «العلمية» هي أقرب طريق إلى التنمية.

ما كانت الشيوعية في نظر مؤسسَيها ماركس وإنجلز وفي واقع الأمر إلا فلسفة ناقدة للرأسمالية من بين فلسفات أخرى. وما كان الحزب الشيوعي في نية الرجلين، كما أعلنا ذلك في البيان الشيوعي، إلا حزبا تقدميا من بين أحزاب اليسار. وإنما اكتسبت الفلسفة الماركسية سماتها الثورية وهيبتها ووحدانيتها بفضل البروز المفاجئ للدولة العظمى التي ملأت آفاق التاريخ المعاصر، ووطدت أقدام الدولة الاشتراكية، ومدت نفوذها السياسي والعسكري في أرجاء الدنيا مزاحمة الجبار الرأسمالي، معاندة له مغالبة.

كانت الثورة الاجتماعية، الثورة التي تحقق العدل وتحرر العمال، وعدا تمخضت عنه فلسفات الاشتراكية ومن بينها الشيوعية. كان ذلك الوعد الساحر نجما تألق في سماء أوروبا البورجوازية فاشرأبت إليه أعناق الحالمين

بالأخوة البشرية حتى نطق جوريس باستعداده لخوض غمار «الطريق المعتمة» لتحقيق هذا الحلم الكفيل وحده بتعويض الشموس الغائبة. الآن بعد نجاح ثورة البلاشفة الروس والشيوعيين في الصين وفتنام غابت الأحلام الثورية، فما هي إلا الدولة، وتركيز الدولة، والإنتاج والسلاح. كل الاعتبارات الثورية، كل الوعود الإنسانية، وكل الدقائق المذهبية، يجب أن تخدم الاعتبار الأول: الدولة، ورأسمالية الدولة، وقوة الدولة، الاقتصاد والإستراتيجية هما البغية والهدف، ويبقى تحرير الإنسان شأنا من شؤون الخطاب.

يصغي حكام العالم المتخلف لما فعلته وتفعله الدولة الشيوعية العظمى في الميدان أكثر مما يصغون لما كتبه آباء الثورة. لا اختيار لهؤلاء الحكام وهم في زحمة الأحداث وتحت تهديد الصراعات المحلية، إلا قبول الحلف المخطوب أو المعروض أو المفروض مع الدولة العظمى، فإن كانت هذه الدولة هي روسيا، فإن ميلاد الحلف يواكب الإفصاح عن النيات التقدمية الاشتراكية، ويواكب تبني تقنية للثورة، وتقنية «وحيدة» للتنمية.

ما كل الدول الناشئة توفر الضمانات الباهظة للرأسمالية الحريصة على مصالحها، وللشركات المتعددة الجنسية الصائلة في العالم، مثلما وفرت وتوفر تايوان وكوريا والفلبين. لذلك فالدولة العظمى الاشتراكية هي الملاذ البديل للأنظمة الكادحة في شقاء المحنة، إيديولوجيتها ونموذجها التاريخي قيد الطلب. قد تكون مناضلا متينا أصيلا مثل هوشي منه، فلك الدعم غير المحدود لتسليح التعبئة القومية التي تقاتل الأمريكان عن الروس حتى آخر جندي من عالم المستضعفين. وقد تكون اشتراكيا طارئا لا تأخذ الوصفة الشيوعية بكاملها فمصيرك مصير نريري حاكم تنزانيا الذي أعلن إفلاس

سياسته الاشتراكية التأميمية بعد عشرين سنة من تجربته «الرائدة» في إفريقيا، كان على الأقل صريحا فأعلن فشله على العالم.

الدولة العظمى الشيوعية تضع طابع الضمانة على ميثاق الحليف بأن المذهب هو أنجع التقنيات للتراكم الاقتصادي في بلاد لا بورجوازية فيها تؤدي مهمتها التاريخية، وأنه أعلى التقنيات لتعبئة العمال، وفرض دكتاتورية بروليتاريا تأخذ بزمام الاقتصاد، وتجمع في يدها منابع الأرزاق، لتوجه الطاقات كلها وجهة واحدة، بلا معارضة ولا نأمة تتنفس، وتلك هي الشروط الضرورية لحرق المراحل.

بين المساومات المتشابكة المتعالية في سوق العرض والطلب العالمية، لا يسمع عرض الإسلام، لأن الإسلام لا دولة له قوية. العملاقان اتفقا على تعتيم الدعوة الإسلامية كما اتفقا على حرب الحركة الإسلامية الحية. يستطيع المعسكر الغربي أن يروج لغرضه بتقديم إحصائياته الاقتصادية، ويستطيع المعسكر الشرقي أن يغري بمذهبه من خلال الدعم العسكري والدبلوماسي. أما الدعوة الإسلامية فلا تملك حاليا إلا نموذجا ناشئا للثورة في إيران، حماها الله وسددها، لمّا يعطِ براهين نجاحه العملي، لكن على الدعوة الإسلامية أن ترسم البديل المنهاجي للطريق المعتم الذي غاب عن سلوكه كل اهتمام بالإنسان وتحريره، بديل يحرز الفاعلية لكن لا يضيع الإنسانية.

ماهي الماركسية

هي ماركسيات متعددة، فروع ثرّارة انشقت عن أصل كثيف، مدارس تخرجت من مذهب. اختصت منها مدرسة تاريخية انفردت بمجد تاريخي فتعينت «الماركسية اللينينية»، والتقى الاسمان الشهيران: اسم الفيلسوف المؤسس، واسم الفيلسوف القائد الثائر. وما عدا هذا القران العتيد، فلواحق وجداول من أسفل المجرى، أو تفريعات ثقافية. هناك الماركسية الشعوبية[1]: (populiste) التي تستحث العاطفة الشعبية عندما تبسط الفلسفة وتبرز الوجه الحماسي الغضبي الإنصافي لدعوة: «يا عمال العالم اتحدوا». هنالك الماركسية الاقتصادوية التي تكشف عن الغاية الأولى من الماركسية، وهي تولي الطبقة البروليتارية زمام الاقتصاد بعد البورجوازية التي انتقدها كتاب «رأس المال» لتعطي الإنتاج دفعة جديدة بتحسين وسائل الإنتاج على إثر القفزة النوعية التي تحققها ثورة العمال، وهي ثورة تتطور معها علاقات الإنتاج، مما يمكن من عقلنة الاقتصاد وتطوير التكنلوجية. هناك الجانب التاريخي للماركسية يستند إليه المثقفون ليضعوا على سلم التطور التاريخي كما حلله زعيم المذهب تاريخ قومهم، ويقيسوا على معاييره الخطوات التاريخية التي تفصل المتخلف عن المتقدم، ويبرزوا مفهوم «التخلف التاريخي» الذي يزج بالشعوب التي كانت خارج التاريخ لتدخل حلبة العصرية عارفة مكانها، ساعية لحرق المراحل.

(1) يستعملون هذه الإضافة الواوية لمقابلة الأصل بحروف «ism» التي تفيد المذهبية.

هناك الماركسية التروتسكية الداعية إلى «الثورة المستمرة» العالمية بعد أن قصرت الماركسية الستالينية «الثورة في البلد الواحد».

هناك ماركسيات وجدت مجالا للتجربة، وأخرى لاتزال فلسفة على الطروس. هناك قبل كل شيء الحدث المركزي وهو وجود الدولة العظمى وهيبتها وسطوتها. وبوجودها لم يبق للمذهب وفروعه إلا الأهمية الثانوية الهامشية، أهمية الإيديولوجية المصاحبة التي تبرر قرار الحزب، وتملأ الفضاء الثقافي، وتصوغ الخطاب التقدمي، وتستنبط الاجتهاد الفقهي الذي يدين الانحراف عن خط الحزب الأب والدولة الأم، وتكتسب مرونة ورشاقة بمعاناتها الرياضية للتاريخ ومسايرتها لتطور العلوم، فتستوعب وتستقطب.

للماركسية في بلادنا الإسلامية، بين مثقفينا المغربين اليساريين رواج لا يزال قويا في عصر وفاة الإيديولوجيات. حتى إن مثقفينا يظنون أن لا أحد يستطيع تقديم فكرة واحدة صحيحة عن العصر ومشاكله، والتاريخ وتطوره، والمستقبل واقتحامه، ما لم يمخر في عباب الماركسية الزخار، علم ذلك أو لم يعلم.

يمكن للإسلاميين أن يتركوا فحص هذه الأطروحة وأمثالها إلى حين، لكن لا يمكن أن يحيدوا عن مواجهة التحديات الفكرية التي تطرحها الماركسية، كما لا يستطيعون أن يحذفوا من الواقع وجود تنظيمات لا تزال، رغم اندحار اليسار في البلاد الإسلامية وفشل تجاربه، تستمد غذاءها الفكري، كلا أو بعضا من الماركسية.

أول ما يهمنا وأسبقه هو كون الماركسية «لاهوتا أرضيا» يتناقض أساسا مع الإيمان بالله عز وجل وباليوم الآخر، وبالتالي بالإنسان وكرامته الأبدية

دنيا وأخرى. الماركسية زبدة الفلسفة الأوروبية وخلاصتها التي تمخضت عنها قرون من صراع مثقفي النصرانية مع الكنيسة. إنها الكلمة الأخيرة التي قالها الإلحاد في وجه التدين. الماركسية دراسة واسعة للحركة الاجتماعية في المجال الأوروبي بواسطة المنهج الجدلي القائم على النفي الهدام المدمر. وأول ما تنفيه وجود الخالق. النفي البات الجذري. كانت البورجوازية الأوربية تنفي الدين في ثورتها حتى كان شعار الثورة الفرنسية: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس». لكن تلك الثورة، ربيبة القرن الثامن عشر، قرن الثقافة الإنسية والانفتاح و«التنوير»، ما نفت الدين أول شيء إلا ردا على تحالف الكنيسة مع الإقطاع. وبقيت في أعقابها فلسفات لاهوتية مثالية لا تنكر وجود الله عز وجل. ناهيك بهيجل قمة الفلسفة الأوروبية قبل أن يصعد نجم ماركس الذي «أوقف الجدلية على أقدامها بعد أن كانت تمشي على رأسها» في فكر شيخ الفلاسفة الجبار هيجل. المادة ولا شيء غير المادة. منها ينبثق كل شيء وإليها يرجع. هذا الإنكار للخالق عز وجل هو مناط عداء الإسلام للماركسية، فلا لقاء أبدا. يعرف الاشتراكيون من بني جلدتنا ذلك فيضطرون إلى مجاملة دين الجماهير ومهادنته، وبذلك يسقطون عن مرتبة الصفاء الماركسي والصرامة الماركسية في أعين الملاحظين من الخارج. أما عارف ما هنالك فلديه الخبر أن عقيدة القوم مهما كانت الواجهة أن «لا اشتراكية إلا الاشتراكية العلمية».

بين الإسلام والماركسية «تناقض» عدائي بما هي إلحاد نرفضه، لكن الماركسية ثورة أيضا على الظلم. فهل نرفض الماركسية لإلحادها أم لثوريتها؟ ما أسهل على منافقي «اليسار الإسلامي» وأمثاله من مذاهب اليسار أن ترمينا بعداء الثورة على الظلم، فتلصق بنا تهمة سياسية تزيد من حراجة موقفنا أمام التحدي التاريخي الذي ينتظر من الإسلاميين حزب الله أن يفكروا وينظموا

ويقودوا ثورة تنصف المستضعفين دون أن تمس قداسة الدين الذي استعمله حكام الجبر وحاشيتهم من علماء القصور استعمالا لا يختلف في جوهره عن الاستعمال الكنسي حليف الإقطاعية في أوروبا ما قبل الثورة البرجوازية.

إن لزوق الماركسية بالأرض، وتحديد مطافها في أفق المادة، وتشبعها بالمفاهيم الاقتصادية من «إنتاج» و«وسائل إنتاج» و«علاقات إنتاج» و«قيمة» و«فائض القيمة» إلخ، تنبيه بليغ ودرس فصيح لعقليتنا العتيقة التي ما عرفت كيف تحافظ على هم الأرض إلى جانب هم السماء في خطابنا وتصرفنا مثلما جاءا مقترنين في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وتاريخنا الراشد.

يجيء ستالين رجل القبضة الباطشة والفكرة الواطئة فيضع سؤالا يلخص به «المادية التاريخية» لب الفلسفة الماركسية، ويجيب الجواب المنحط عن كل فوق، الملتحم بكل تحت. سؤال وجواب يكونان محور الفكر الذي أقام الدولة العظمى والقاعدة العملية التي عليها بنيت، والآفاق الحضارية التي عليها تنفتح، والعنصر المادي الذي يضمن لها الحياة. قال: «ماذا ينبغي أن نفهم من وجهة نظر المادية التاريخية عندما نقول: شروط حياة المجتمع المادية التي تحدد في النهاية هيئة المجتمع وأفكاره وآراءه وأوضاعه السياسية وما إليها؟» ويجيب بأن «المادية التاريخية تعتبر أن هذه القوة هي أسلوب الحصول على وسائل المعيشة الضرورية لحياة الناس، أي أسلوب إنتاج الحاجات المادية كالغذاء واللباس والأحذية والمسكن والوقود وأدوات الإنتاج التي لا بد منها حتى يستطيع المجتمع أن يحيى وأن يتطور».[1]

(1) «المادية الديالكتيكية»، ص: 63، 69.

إن كانت الماركسية الفلسفة تناجي عقول المثقفين، فهذه المحاسبة البقّالية الستالينية تلخص ما عليه يدور الوجود المادي للمجتمع فعلا. ولا يعبر عن هَمّ المجتمعات المتخلفة الجائعة الحافية مثل إنتاج المسكن والملبس والأحذية والغذاء والوقود والدواء.

« ولا يحض على طعام المسكين »

ما قصد الفيلسوف اليهودي ماركس عندما شيد مذهبه بإعانة رفيقه الحميم إنجلز أن يضيف بناء فكريا شامخا، ولو حاول لقصر أميالا عن الهيكل الهيجيلي، لكنه قصد أن يسلح بالفلسفة المواتية إرادةَ التغيير. أراد أن تصبح الفلسفة كلها فعلا منصبا على تحريك المجتمع. من دهائه أنه لم يصرح كل ذلك التصريح بأن لديه تلك الإرادة، أو بأن للإرادة البشرية، فردية أو جماعية، أي أثر في حركة التاريخ الحتمية. إنما كان يعرض في زعمه علم جدلية التاريخ وآلية الحركة الحتمية للمجتمع البشري في تطوره وتعاقب مراحله، ذلك التطور اللازم.

إن كنا نحن المسلمين نرى عصارة الماركسية في الإلحاد، وجوهرها تعميم النفي الجدلي الذي نحى عن ضمير الإنسان وعن حياة المجتمع فكرة الألوهية، وحرض على التنافي الاجتماعي بين الطبقات، أي على الحرب الأهلية، فإن معتنقي المذهب وحملة لوائه ما يلقون بالا، إلا أن يكونوا مثل الماركسي التائب جارودي الذي أقبل على الإسلام ينشد الله تعالى، إلى ما فقده الإنسان لما بترت منه الفلسفة الإلحادية بعدَه الروحي وبالتالي أخلاقيته وروحانيته ومعناه. بل ارتاحوا إلى هذا البتر، لأن إنزال الإنسان إلى أرض ماديته، ما ثم غيرها، إنارة ضرورية على المسرح الاجتماعي لتتركز جهود المجتمع على الحركة التاريخية التي تخرج، بالتآكل والصراع الطبقي من أحشاء البرجوازية الجنينَ العبقري للمجتمع الاشتراكي.

يقول لينين: «إن جوهر نظرية ماركس إنما هو في أنها ألقت الضوء على دور البروليتاريا التاريخي العالمي، كصانعة للمجتمع الاشتراكي».

يضع الفيلسوف الزعيم المجدد الأصبع على روح الماركسية، العملية الثورية، فيبرز من الركام الهائل المشتبك للدراسة التاريخية الاجتماعية الاقتصادية الفلسفية «العلمية» الوضعية توجه السهم الحي النابض بالفاعلية، سهم ما سماه ماركس نفسه بالمبادرة التاريخية للبروليتاريا.

الماركسية الفعالة هذه، اللينينية المحضن والمنشأ، تشير إلى الطبقة المبتزة المستأثرة بالاسم، وتعرفها في مسارها التاريخي، وتفضح آلية الابتزاز، وتتبع علاقاته لتحرض الطبقة المحرومة على القتال لاستعادة حقها. تفتح لها أسباب الوعي، وتعين لها أسلوب التكتل، ووسائل الفعل وزمنه وإبان زرعه وحصاده. هذه الماركسية المبسطة تقنية محضة، أي طريقة تطبيقية تعطي نتائج ملموسة باتباع منهج مخطط، كل المعارف المتراكمة في ثقافات أوروبا حشدت وصيغت ووجهت وهذبت. وكل التجارب التاريخية لأوروبا استدعيت إلى كرسي الشهادة، لشرح ضرورة الفعل الثوري، وأهلية «الفاعل التاريخي»، وبرنامجه، ومشروعيته التاريخية، وضرورة نجاحه، في جو من التشاؤم الفلسفي المقتنع بانحصار الرأسمالية وتفاؤل ثوري لا نهاية له بنجاح مؤكد للمشروع الثوري البروليتاري.

الفلسفة الألمانية أعطت الآلة المفهومية الأساسية التي طورت إلى سلاح الجدلية المادية، الاشتراكية الفرنسية الغنية بالانتفاضات والمطالبات والصقل المتبادل بواسطة النقد ومواجهة الدولة أعطت الاتجاه الاجتماعي، وأعطى الاقتصاد الإنجليزي الأرضية العلمية، إن صح أن الاقتصاد كان يومئذ علما،

التي مكنت من نقد الرأسمالية وحاملتها الطبقة العدوة. ليست الماركسية مزيجا من كل ذلك، لكنها قارة جديدة صلبة طفت على سطح تلك الأمواج المتلاطمة. ما من ذرة من رمالها إلا هي دَيْن لتلك الأمواج، لكن السبك فريد نسجه، ونسيج وحده. قاعدة تلك القارة نقد الرأسمالية، وقائمتها بالتوجه الاشتراكي، وحياتها بالجدلية، أي بالتحريض الضمني علما موضوعيا، أو المعرف بنفسه في جملة «يا عمال العالم اتحدوا»، وفي نسبه الأصيل الطموح إلى الوراثة في عبارة «المبادرة التاريخية للبروليتاريا».

أعطى مفسرون مثقفون للماركسية ترجمات موضوعية بوصفها تحليلا اقتصاديا جاهزا، أو فهما للتاريخ الحتمي الماضي في سبيله كما أراد ماركس أن يوهم قراءه. وإنما تستمد الماركسية فاعليتها من التحريض، الذي يتخلل الفلسفة والتوجه الاشتراكي والنقد الاقتصادي على صناعة التاريخ، أي على انتفاضة المحرومين ليصرعوا أضدادهم ويستولوا بأيديهم على زمام الدولة لتستبد البروليتاريا بالاقتصاد.

هذا التحريض المفلسف الناشط الوثاب هو الطاقة المحركة لجماهير الشباب المتعطشين للعدل، هو الخطاب المنافس للدعوة الإسلامية، لا الفلسفة التي يتسلى بها المثقفون، أو يزين بها الحكام واجهتهم ليكسبوها وجاهة تقدمية، ويلهجوا بلهجة الدولة العظمى الكافلة، ويلحنوا بلحنها.

تخاطب الدعوة الإسلامية الإنسان من أنبل جهاته، تدعوه من قبل روحانيته ليقتحم العقبة إلى الله عز وجل. والعقبة ما هي؟ نص القرآن الكريم سبّق في وصفها ملامحَ تحرير الإنسان وإطعامه على ملامح الإيمان الأخرى.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ﴾[1]. ذلك أن الجائع لا أذن له ولا سمع ولا استعداد ليسمع نداء مهما كان سامي المصدر عالي المطمح قَبْلاً من نداء يحدثه عما يقيم أَوَدَه. الإسلام في خطبة الواعظ واجتهاد الفقيه توبة والتزام بالشرع وتعلق بالمولى واستعداد للآخرة. والأمر كذلك لو كان المجتمع المسلم مكفي المأونة، شائعا فيه الرخاء، مسوّاة فيه مشاكل الأرزاق وقسمتها وإنتاجها. أما وحال المسلمين كما نعلم، فإن غياب الاهتمام بالمسألة الاجتماعية، أو إهمالها، أو تأخيرها عن موضعها السابق في الخطاب القرآني لا يقل عن أن يكون تحريفا خطيرا.

إذا كنا نلح على تنهيج الدعوة، وتنهيج البرنامج الإسلامي، أي إعادة عرضه على نسق الأسبقيات القرآنية (عقبة=فك رقبة، ثم إطعام، أي حرية وعدل) فالمنبه هو هذا الطاغوت المادي الذي لخص الحكمة كلها في إنتاج الغذاء والمسكن والملبس والأحذية والوقود. هذا الطاغوت الذي يتماثل أمامنا خطرا يهدد باستعمار نهائي للعقول والمعاقل وارثا لطاغوت الاستعمار المباشر الذي فعل فينا فعله.

يخاطب الله عز وجل الإنسان من أنبل جهاته، يحرضه على إطعام المسكين، في مثل قوله تعالى في وصف الأبرار ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾[2] وقوله تعالى في تهديد الفجار ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لاَ

(1) سورة البلد، الآيات: 12-14.

(2) سورة الإنسان، الآية: 8.

يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[1] وفي آية الزكاة والصدقة ما يؤيد أهمية العطاء، ويرفعه إلى مرتبة مع الإيمان بالله تعالى أو قبل الإيمان في حق العطاء للمؤلفة قلوبهم مثلا، وفي حق من يُخشى عليه الكفر لما يهدده من فقره، «كاد الفقر أن يكون كفرا»، أثر بليغ في هذا المعنى.

يعني تنهيج الدعوة عندنا، وتنهيج العمل، فيما يعني، أن نؤكد على المسألة الاجتماعية، ونجعلها من صلب المنهاج وأسسه، لكي لا نبقى في أخلاقيات الصدقة والبر التي بمقتضاها يتفضل زيد ببناء مأوى للعجزة، وعمرو بإطعام مائة مسكين يوم الجمعة. يجب أن يصبح التحريض الإلهي على تحرير الإنسان وإطعامه برنامجا في زحفنا، وعنصرا أساسيا في تربيتنا وهدفا مباشرا لدولتنا، وإلا فالبديل إسلام يساري، ماركسية ثعلبية تلبس لبوس الإسلام.

(1) سورة الحاقة، الآيات: 30-34.

الملكية الخاصة

السؤال المقيم الخانق الذي تضعه الماركسية خاصة وكل حركة تقدمية بمعنى الوقوف إلى جانب المحرومين، وإطعام الجائعين، ونصر المستضعفين، هو: لماذا تعادون الماركسية؟ لإلحادها أم لثوريتها؟

إن الجاهلية مفهوم قرآني عام. القرآن يدحض الجاهلية ويقابلها بالإسلام تقابل الظلام مع النور. من خصائص الجاهلية الجهل بالله عز وجل وهو أعظم الظلم، ومن خصائصها الجهل على الإنسان بمعنى العنف عليه. وليس كالعنف المنظم، عنفِ التسلط الطبقي ظلم ما دون الشرك بالله تعالى والإلحاد به.

فإذا نظر الناظر منا بمنظار النور والظلام، وحكم بحق على الماركسية بأنها الصيغة المعاصرة للجاهلية في آخر تطورها ملتفتا فقط إلى الإلحاد طاويا جناح الغضب عن ما تحتويه الماركسية من نقد للصيغة الجاهلية المعاصرة البكر، الرأسمالية، فإنه وشيك أن يزكي من حيث لا يشعر جاهلية لا تقل عن الماركسية عداوة للدين وإن كانت تسكت عن ذلك متذرعة بالعلمانية، وتقصر عن الماركسية، ولو في النية والشعار، في مجال الهتاف بإنصاف المحروم وإدانة الظلم الاجتماعي.

وربما يسند ذلك الناظر ظهره إلى نظام سياسي من هذه الأنظمة الفتنوية المتسلطة في بلاد المسلمين باسم الإسلام، فيوجه النقد العدائي للماركسية نصيرة المحرومين، بالنية الإيديولوجية والشعار، ساكتا عن الظلم الفتنوي.

وبذلك يقدم لدعاة الماركسية ودعاة الاشتراكية العلمانية نموذجا حيا للرجعية، أي إسلام الواجهة الأمريكي.

انتقدت الماركسية، وهي آخر طراز لوجه الجاهلية المتطور أمها الرأسمالية، وهي لا تزال الجاهلية المهيمنة في العالم ثقافة واقتصادا وحضارة وسياسة. فأي وجهي الجاهلية أحق باهتمامنا الحذر وأسبق؟ وما نصيب النقد الماركسي للرأسمالية من الصواب؟ وهل نستفيد من دراسة جاهلية نعاديها عداء جذريا لجاهلية تعادينا عداء فتاكا، وكيف؟ وكيف نستوعب في نقدنا للجاهلية المعاصرة ما تقوله دعاية الديمقراطية في النظام الشمولي الشيوعي، وما تقوله الدعاية الشيوعية والإيديولوجية المبسوطة في الملكية الخاصة، وفي الرأسمالية البرجوازية الصناعية؟

أثبت كتاب الله تعالى حق التملك، فهو شرع محكم. وشرع سبحانه في كل مال زكاة تفتت الثروة وتوزع الخير. وشرع مقادير للميراث تنظم سريان الثروة عبر الأجيال عموديا وفي القرابة أفقيا. وكانت الملكية في المجتمعات الزراعية والرعوية والحرفية ملكيات لا مقومات لها كي تفلت من الزمام الشرعي. يمكننا القول إنه على مر تاريخنا الإسلامي خضعت الملكية الخاصة لنظام الزكاة والخراج، فلا التجارة شكلت طغيانا ماليا استقطب السلطان واحتكر القوة، ولا السلطان الملكي، المسمى خلافة أو ولاية استيلاء أو غير ذلك، استطاع يوما أن يحتكر المال في صورة تشبه من قريب أو بعيد رأسمالية الدولة التي اقترحتها الماركسية وطبقتها بديلا لطغيان رأس المال. ما كان من تخلخل في النظام المالي في الإسلام التاريخي ليس مرده إلى قلة مواءمة النظام الشرعي للزكاة والخراج، بل مرده إلى تعسف الحكام وجورهم.

وهذا عصر الرأسمال التجاري الصناعي، تمثلت فيه الرأسمالية كيانا طاغوتيا نهابا مستحوذا أخطبوطيا ممتدا في الآفاق. كان النهب الاجتماعي المقنن، والنهب الاستعماري على شَبَا نصال الغزو للعالم، مصدرا تكون الرأسمالية البورجوازية التي جاءت الماركسية تنتقدها. فإن جاء المسلمون المتطلعون للحكم بما أنزل الله يعالجون الملكية الخاصة في عصر الصناعة الذي يكسب كل رأس مال، ولو خارج المدار الربوي، حيوية ذاتية عدوانية، بفهم سكوني لا يميز الفرق بين رأس المال الزراعي التجاري القديم وبين حركية المال في هذا العصر، فكأنما يحاولون خطم ناقة بخطام ذبابة.

لن يفيدنا النظر في نقد الماركسية للرأسمالية من ناحية وصف العلاج، فالبديل الشيوعي بديل جاهلي لمستبدل جاهلي. العلاج معنا وهو شرع الله عز وجل في الزكاة، وإيتاء ذوي القربى، وبذل الفضول، «والناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار»، وما يقاس عليهن من عموم الحاجة ومحدودية الموجود، وفي الحض على طعام المسكين، ذلك الحض المنهاجي الذي يضع الإسلام في مشارف عالمية الرحمة الشاملة لكل المستضعفين في بلاد الله، عاليا على الأثرة الإمبريالية الرأسمالية، والاستحواذ الأحمر، عاليا في الأمر والتوجيه الإلهيين، في انتظار التطبيق.

الذي يفيدناه النظر في نقد الماركسية للملكية الخاصة هو معرفة خصائص الرأسمالية، على شرط أن ننتقد ذلك النقد ونكمله، فإننا لا يمكن أن ننظر إلى المستقبل بمعلومات أمس الدابر يوم كتب ماركس وإنجلز ولينين، ولا بمعلومات الدعايات المتضادة التي يرمي أحد المعسكرين الجاهليين خصمه بها.

تقول الرأسمالية: «إن الملكية الخاصة هي القاعدة المادية لكل حرية، ولكل نشاط اقتصادي، ولكل استقلال فردي». وتجيب الماركسية بأن الملكية البرجوازية ليست نتاجا للمجهود الفردي، بل هي نتاج مجهود عام، مجهود الكادحين المأجورين المغبونين في حقوقهم، المستلبين من ثمرة عملهم.

يقول الله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُمْ بَيْنَكُمْ بِٱلْبَٰطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾[1] بفهم الفقيه السكوني يكون التراضي بين البائع والمشتري، وبين العامل وصاحب المعمل، إظهار الزبون والعامل رضاهما وقبولهما بالثمن والأجر. أما الفهم المنهاجي فيتلقى خطاب الله عز وجل في عموم توجهه لجماعة الذين آمنوا المخاطبين بالشرع، لدولة الذين آمنوا المكلفة بتطبيق الشرع، المسألة بالفهم المنهاجي مسألة نظام تراض يكون فيه كل أفراد الأمة راضين عن نصيبهم في القسمة، ولا سبيل إلى ذلك إن ترك العامل والمشتري في قبضة الحاجة التي تلجئ المستضعف لقبول شروط المستكبر. في هذه النقطة بالذات بذل ماركس جهودا متواصلة لاستخراج مفهومي «فائض القيمة» و«الاستلاب» وتقديمهما على أساس أنهما علم موضوعي، فالمفهومان فص الدائرة الماركسية برمتهما.

وصف ماركس وإنجلز العلاج لطغيان الرأسمالية البورجوازية الصناعية وحدداه في تدمير الملكية الخاصة. وهو علاج لا يقره الإسلام كما لا يقر التراضي الذي بمقتضاه يقدم الحمَل نفسه فريسة للذئب مع الاعتراف بالجميل.

قال مؤسسا الشيوعية في «البيان الشيوعي»: «إنكم تفزعون من نيتنا نقض الملكية الخاصة. لكن المكلية الخاصة في مجتمعكم المعاصر لا وجود لها في

(1) سورة النساء، الآية: 29.

حق تسعة أعشار أعضاء هذا المجتمع. إن لها وجودا بالضبط بسبب فقدانها في حق تسعة أعشار. فأنتم تلوموننا إذاً على إرادتنا نزع ملكية لا يمكن أن تتحقق إلا بشرط ضروري وهو أن لا يكون لأغلبية المجتمع الساحقة أية ملكية. في كلمة واحدة تلوموننا على إرادتنا نزع ملكيتكم أنتم. نعم، هذا بالتأكيد ما نريده».

ما الحرية ولا الفردانية في مجتمع البرجوازية إلا قناعان للملكية الخاصة في نظر الماركسية. الحرية معناها ونتيجتها تقوية رأس المال على حساب البروليتاريا. العامل المحروم لا شخصية له ولا حرية إلا في أن يكون هو نفسه بضاعة معروضة في السوق. إن رفضنا العلاج فهل يمكن لعاقل أن ينكر صواب وصف مرض الرأسمالية؟

مهمة البروليتاريا

تعتبر الماركسية أهم فلسفة اجتماعية أعطت التحليل المتكامل لمسلسل الثورة. وترجع الماركسية الثورات التاريخية في آخر تحليل كما يعبرون إلى الملكية الخاصة فعندما تتركز وسائل الإنتاج، من مال وأرض وباقي أدوات الإنتاج، في يد أقلية معينة، فإن هذه الأقلية تستغل الكادحين المنتجين، وبذلك تتميز طبقتان تسود بينهما علاقات إنتاج بمقتضاها لا يكون في يد الطبقة الكادحة إلا قوة عملها تبيعها مقابل أجر معين.

وما الثورات إلا كفاح الطبقات المشتغلة المستغلة ضد الطبقة التي تمتص ثمرات شغلها. وفي المجتمع الصناعي، وهو آخر تطور تاريخي في عصر ماركس، بلغ التناقض الطبقي مداه، لأن البرجوازية لمت في يدها وسائل هائلة على شكل رأس مال وآلات وجيوش منظمة من العمال. وبذلك تجمعت من ناحية ثروات طائلة في يد الطبقة المالكة، وتجمعت الحشود الكبيرة من العمال المحرومين حول المعامل. فأصبح من المحتم الذي لا مناص منه نشوب حرب طبقية بين الفريقين.

في كل مراحل التطور الاجتماعي التي صنفها ماركس تأتي الثورة نتيجة حتمية لهذا الاستقطاب الثنائي: نتيجة طبيعية كما يتلو فصول السنة بعضها بعضا باستثناء الانتقال من مجتمع المشاعية البدائية إلى مجتمع الرق. الانتقال من قنانة إلى الفيودالية كان نتيجة ثورة، والانتقال من هذه إلى المجتمع البرجوازي كان أيضا نتيجة ثورة، وجد نموذجها الكامل الجاهز في الثورة

الفرنسية. ومن المجتمع البرجوازي إلى المجتمع الاشتراكي المنشود رشح ماركس ورفيقه إنجلز الطبقة البروليتارية في البلاد المتطورة صناعيا حيث بلغ التمايز الطبقي غايته لتقوم بالانتفاضة المحررة.

كان يرى أن المجتمع الصناعي في إنجلترا ثم في البلدان اللاحقة لها في التصنيع مثل فرنسا يومئذ وألمانيا، يحمل في أحشائه جنين الثورة. لم يكن في نظره أمام حشود العمال إلا مستقبل كئيب لا بد أن يبلغ فيه يأس العمال أشده. ما في الأفق، في نظرته تلك المتفائلة في اتجاه ما يرجوه ويحرض عليه من ثورة، إلا مزيد من التفقير ومزيد من تعاظم أعداد العمال البائسين تعاظما يسهل يقظة الوعي السياسي بينهم، وبالتالي يقظة الوعي الثوري والتوجه الثوري.

يعرض الكاتبان المؤسسان لوحة قاتمة لصعود الحقد الطبقي الذي تجمع في مراحل التاريخ وتوارثته الطبقات المحرومة إلى أن وصل إلى صيغته الانفجارية عند البروليتاريا. يعرضان لوحة عن الظلم الطبقي عبر مراحل التاريخ. في فقرة من فقرات «البيان الشيوعي» يقولان: «كان الصراع دائما والتعارض متواصلا بين الرجل الحر والعبد، بين النبيل والوضيع، بين البارون والقن، بين «المعلم» الحرفي والصانع، وبكلمة واحدة بين الظالمين والمظلومين. كان بينهم صراع لا هوادة فيه، صراع متستر تارة، ظاهر تارة أخرى. وكان هذا الصراع ينتهي دائما بتحول ثوري في المجتمع كله، أو بالتدمير المشترك للطبقات المتصارعة (...) إن المجتمع البرجوازي العصري الذي تولد من المجتمع الإقطاعي لم يضع حدا للتعارض الطبقي، (...) لكن عصرنا، عصر البرجوازية، يتميز بأنه بسط التعارض الطبقي. فإن المجتمع لم يفتأ ينشق إلى معسكرين كبيرين متعاديين، إلى طبقتين كبيرتين متعارضتين تعارضا لا لقاء معه: البرجوازية والبروليتاريا».

البرجوازية عند مؤلفي «البيان» هم الملّاك الذين يشغلون عددا كبيرا من العمال، هم «المليونيرات الصناعيون، رؤساء جيوش صناعية كاملة»، البرجوازية هي رأس المال. وفي المقابل فالبروليتاريا هي الجيش الذي لا يملك أفراده شيئا غير قوة عضلاتهم، هم ضحايا عملية الاستغلال التي بواسطتها ابتز الأعداء الطبقيون الملايين وكدسوها.

لا يدين ماركس أبدا في كتاباته، وخاصة في «البيان» أية طبقة إذ لا يليق بالعرض «العلمي» الموضوعي أن تتخلله عاطفة. يكفي أن يتقدم العرض العلمي بالمعطيات التاريخية وآلية تسلسلها وترتيب الأسباب والمسببات. الغضب مكتوم تماما على العرض الإيديولوجي «الرزين» المتزن حرفة وصنعة، لولا الصرخة النهائية في البيان «يا عمال العالم اتحدوا»، صرخة الثائرين الملتزمين بقضية، جاءت «فلتة» ضرورية.

إن أية إدانة للطبقات المتعاقبة على مسرح التاريخ موقف لا يليق بالديالكتيك العلمي المنهجي. المنهجية الجدلية لا تعترف بمعيار مطلق للقيم نتحاكم إليه لندين بميزانه طرفا ونزكي طرفا. التاريخ حركة جدلية حتمية تتعارض فيها القوى الاجتماعية وتتنافى وتتناقل بشكل طبيعي لا غرابة فيه. وما من مرحلة إلا تأتي كممر لازم يعتبر تقدميا «في ظروفه وشروط وجوده». وهكذا فالإسلام مثلا كان ثورة تقدمية في ظروفه وشروط وجوده. ومعنى ذلك أن تلك الظروف تجاوزها التاريخ الآن، فالشكل الاجتماعي والفكر الذي غذاه وحمله أثناءها شكل متخلف وفكر رجعي.

لم تستطع الفلسفة الماركسية أن تقول ولو كلمة معقولة عن كيفية انتقال المجتمع البشري من المشاعية البدائية التي كانت اشتراكية عامة لا

تعرف الملكية الخاصة في شيء إلى المجتمع العبودي، كيف حدثت هذه النكسة الرجعية على غفلة من الجدلية العلمية فاختفت الاشتراكية ليجيء بعدها الاستعباد؟

في انتظار ما لا ينتظر فهذه هي البرجوازية المشكورة تقدمت بالتاريخ تقدما هائلا حيث مكنت المجتمع من التمايز العديم المثال في السابق فتقابل معسكران تقابلا مثيرا هو مقدمة الثورة العالمية التي بها ينتهي التاريخ بانتهاء الجدلية.

ما مهمة البروليتاريا والموقف هو هذا؟ إن البروليتاريا تحتاج إلى موقظ يأتيها من خارج. وتلك مهمة الحركة العمالية، والطليعة الثورية كما يقول لينين.

طالما نومت الإيديولوجية البرجوازية حس العمال وخدرته، طالما زيفت الثقافة البرجوازية حقائق وضعية العمال ومنّتهم الأماني. إن لدى البروليتاريا وعيا غامضا بوضعيتها لا تتركه الدعاية البرجوازية ليتبلور، فمهمة الحركة الشيوعية أن توضح هذا الوعي، وتسيس الطبقة الكادحة وتحدد لها أهدافها وتقودها إلى المعركة.

مهمة البروليتاريا أن تنجز الثورة المحتومة، ذاك قدرها الذي لا بديل عنه. يعرض ماركس قانون الظواهر الاجتماعية المتحكم في سير التاريخ، قانون تغييره، قانون تعاقب مراحله، قانون نشوء التناقض الجدلي بين الطبقات، قانون تطابقها، قانون صراعها. لا هم لماركس إلا أن يثبت بالدليل الصارم ضرورية تبعية «علاقات الإنتاج» لتطور «وسائل الإنتاج» ومنها الملكية، وضرورة انتقال المجتمع من نظام لنظام شاء من شاء وأبى من أبى.

ويأتي لينين لاحقا بفكرة «المبادرة التاريخية» ليضع إرادة الإنسان في مكانها، وهو مكان الحسم. لكن الحذلقة الفلسفية «العلمية» الماركسية التي دفعت بالباحث في الظواهر الاجتماعية إلى حطها في مرتبة الظواهر الطبيعية الوضعية بقيت الطابع الثقيل للإيديولوجية الشيوعية، وبقيت الحتمية الدكاكة القاضية بطحن العدو الطبقي النموذج الذي قدمته الستالينية للتاريخ.

تقنيات الثورة

أستعمل أحيانا عبارة «الثورة الإسلامية» قاصدا التغيير اللازم لبعث الإسلام في المجتمع وإقامته على قواعد الإسلام ومنها العدل. ولي عبارة أشتقها من منابع إسلامية هي «القومة الإسلامية» أحملها مفاهيم التغيير الإسلامي التي لا تقف عند تغيير الهياكل ولا تكتفي بقلب الأوضاع الاقتصادية. فإلى أن أصل إن شاء الله فيما أكتب إلى إعادة بسط الكلام فيما أقصده بالقومة الإسلامية منهاجا ومضمونا ومغزى ثقافيا حضاريا إنسانيا في العالم، أرسل الكلام عن الثورة الإسلامية إرسالا.

هنا في هذه الفقرات عن الماركسية، يفيدنا جدا أن نتأمل تقنيات الثورة كما استنتجها ماركس ورفيقه من دراستهما الواسعة، وكما طبقتها وناقشتها وقتلتها درسا جحافل الثوريين اليساريين، بأصنافهم اللينينية والتروتسكية والماوية والجفارية والفتنامية إلخ.

ها هي ذه خطوات الثورة البروليتارية كما تتبين أمرا لازما في التاريخ ضروريا حسب العرض الماركسي للتاريخ. وها هي ذه الدفعات «الثانوية» اللازمة أيضا، باعتراف ضمني تخجل الموضوعية الحتمية من التصريح به. هذا الوعي الثوري النائم في ضمير الطبقة المحرومة هو القوة الغضبية الجبارة التي إن أوقظت ووجهت وأحسنت قيادتها بدلت وجه العالم. هذه هي منهجية الصراع الطبقي، منهجية الجدلية العنيفة، التي تغري شبابنا بوضوح خطها إغراء يغمى معه على كل حس فطري أو وراثة تربوية إيمانية. إنها «دليل عمل»

تثق به أجيال الشباب في الدولة المتخلفة، ولا تزال، و«دليل فكر» تثق به أجيال المثقفين بوصفه معينا للانتقاء ونصا للمعرفة ومنهجية للبحث.

إذا عرضت هذه المنهجية في خلايا النضال اليساري، وكما هو معلوم عند كل اشتراكي أنه «لا اشتراكية إلا الاشتراكية العلمية» وهي الماركسية، أمام خلفية وجود الدولة العظمى النموذج المتألق للنجاح وخلفية خمول شعوبنا الإسلامية العتيقة التي يعزى خمولها و«تخلفها التاريخي» إلى الغيب والإيمان بالقدر الذي يشل إرادة الإنسان، ويشل وعيه، فإنها تجمع الرغبات المتناثرة، وتربط الطموحات، وتصنع تكتلا قويا عقديا نرى في بلادنا تميزه عن السبات الجماهيري العميق، وتميز معارضته المنهجية عن المعارضة الإسلامية التي إما أن توصي بمصالحة اجتماعية فتفقد حركتها كل معنى، وإما أن تتطرف في التكفير المناقض للثورية لفوضويته، المناقض للإسلام لسحبه على الأمة حكما هو التعسف بعينه.

فكيف نفكر الثورة الإسلامية؟ وكيف نوقظ الوعي الغافي في حديث الموائد عن المنكر والظلم، ذلك الحديث العاجز المخدر. كيف نوقظه، ومن يوقظه؟

في سؤال واحد كيف يتحزب حزب الله؟ وكيف يتحرك؟ وكيف يتغلغل في الأمة، وكيف يقود الثورة؟

لاهوت الأرض بسط الأمور ليضع في المسرح جيشين متقابلين متعاديين، وما كان له أن ينتهي إلى غير ذلك. فمن أرض الوحشية القبلية الأوروبية، من زواج العنف الجرماني القبلي بالعنف الروماني فلسفة وتاريخا وثقافة، ولدت حضارة الصراع، لا فرق بين عنف الفيودالية في قعر دارها فيما بينها

أو في هجماتها الصليبية، وبين عنف البورجوازية في ثورتها وحروبها العالمية واستعمارها، وبين العنف الثوري الشيوعي فيما بين طبقات المجتمع الواحد، وفي عدوان الدولة العظمى على بلاد المسلمين.

عالمية الحضارة الصناعية وقعت علينا وقع المصير القاتل، فإن كانت تقتل روحنا في فلسطين القدس المشرف، وتقتل نفوسنا في لبنان وأفغانستان، فهل من الضروري أن ندع الثورة الإسلامية تقتبس المنهجية الجدلية الصراعية فنسمح بقتل روح الروح في حضارتنا الإسلامية التي حييت في مدها الأول بالتسامح وحماية الأخوة الإنسانية؟ روح الروح هي الأخوة بين البشر، والعدل شرط لحياة تلك الأخوة، بل هو جسمها، لا أمل لها بدونه في الحياة. أفإن تناقض مطلب الأخوة مع مطلب العدل قدمنا الأكثر إلحاحا، وهو إنصاف أمة مقهورة جائعة تابعة متخلفة، وخاطرنا بالتردي هُوَّةً أخرى في حمأة الجاهلية وإلى حين بعيد؟ أفإن أرهقنا الظلم الاجتماعي الغازي المحتل لبؤبؤ عيننا القدس طلقنا أمل حمل رسالتنا الإسلامية العالمية، وهي في نيتها ومحتواها سلام في العالم وأخوة في المجتمع، لنتسلح بسلاح الإيديولوجية الصراعية، ولو اقتباسا من بعيد، وعندئذ لن يكون المولود الثوري من الإسلام، بل يكون هجينا أرعن لن يحمّله الله عز وجل مصير رسالته.

أوضح ما أقصد إليه فأقول مستعينا بمن له الحول لا إله إلا هو: إن الأمة الإسلامية مرشحة، وعدا من الله عز وجل، لقيادة العالم وإحلال السلام بين ربوعه. هذه الأمة اليوم مقهورة تردت إلى أحط الدركات في سلم الأمم. شعوبها مجزأة مقطعة. مجتمعاتها تعرف تظالما طبقيا بئيسا. هذه الأمة لن تحيا أبدا ولن تقوى إن لم يحكمها العدل ويَنْفِ نفْياً إسلاميا الطبقية ومآسيها. هذا

النفي الإسلامي هو مقدمة البناء الإسلامي في عملية «القومة الإسلامية» التي تحتل مركز اهتمامنا في كل ما نكتب إن شاء الله تعالى. هذا النفي لا يعقل عقلا ولا سند له شرعا أن يبقى نهيا أعزل عن المنكر. لا بد من المواجهة في الساحة بين حزب الله وحزب الشيطان.

وعلى نوعية هذه المواجهة ومنهاجها يتوقف مصير التآلف بين المسلمين لإعادة وحدة الأمة السياسية والاقتصادية في حضن المجتمع الأخوي، ويتوقف انبعاث هذه الأمة لتحمل رسالة الله للعالمين.

لنسمع مرة أخرى إلى ماركس يفصل كيف تتوفر شروط الثورة باعتزال طبقة عن طبقة علنا نكتئب من روح الكراهية الطبقية ونزداد في نفس الوقت وعيا بضرورة مواجهة متحزبة للحق صارمة، ما دون العنف الجاهلي الطاحن الذي سنرى قريبا إن شاء الله وصفا موجزا له.

قال ماركس يجيب عن سؤال جريدة «شيكاغو تريبيون»: «رأس المال والأرض ملك للمقاولين بينما لا يملك العامل إلا قوة عمله التي يضطر لبيعها كما تباع البضاعة، تؤكد أن هذا النظام ليس إلا طورا تاريخيا، وأنه سينقرض لتحل محله صيغة اجتماعية أرقى منه. إننا نلاحظ في كل مكان وجود افتراق (طبقي) في المجتمع. ويسير جنبا إلى جنب التضاد بين الطبقيتين ونمو الموارد الصناعية في البلاد المتمدنة. فمن وجهة النظر الاشتراكية، توجد منذ الآن الوسائل الثورية لتغيير الطور التاريخي الحالي (...).

«(...) قد بين الاشتراكيون أن هناك صراعا قائما يتقابل فيه في كل مكان رأس المال مع العمل. في كلمة واحدة بينوا الطابع العمومي لهذا الصراع.

لذلك حاولوا أن يحققوا تفاهما بين عمال بلاد متعددة. هذا التفاهم تزداد ضرورته كلما زاد تعميم الرأسماليين لنظامهم (...). إن الطبقة العاملة أخذت تتحرك دون أن تعرف أين تقودها هذه الحركة، لم ينشئ الاشتراكيون هذه الحركة، لكنهم شرحوا للعمال طابعها وأهدافها»[1].

إن الصحوة الإسلامية حركة أنشأها الله عز وجل مقدمة لقومة هذه الأمة لا نقول بالعفوية والصدفة كما يقول الكفار، فإن استعملنا كلمة «العفوية» فلكي نشير إلى غياب العنصر التنظيمي الشامل. هذه القوة الإسلامية لعل معظم جنودها لا يدرون إلى أين تقودهم هذه الحركة، فعلينا أن نرشد هذه «العفوية» المؤيدة إن شاء الله على نحو لا يغيب عن التنظيم المنبثق عنها، أن أسلوب المواجهة وطابعها وأهدافها ينبغي أن تكتسب الفاعلية التاريخية دون أن تسقط في العنف المنهجي.

(1) Introduction à la sociologie générale, 3e tome, p. 261, Editions HMH, 1968.

عوامل الثورة و«نظامها» المغلق

وما هو الخط الفاصل بين الفاعلية المؤثرة وبين العنف الهمجي؟ وهل هناك عنف غير همجي؟ وهل يتغير التاريخ بدون عنف؟

إن منهاجنا القرآن كتاب الله تعالى، وهو يحمّلنا رسالة الرحمة للعالمين، ويخبرنا أن الله جلت عظمته جعلنا شعوبا وقبائل لنتعارف ونتآخى في ظل سلم ندخل فيه كافة من باب الإيمان به سبحانه ربا، وقبول شريعته قانونا. لكن هذا المنهاج نفسه أخبرنا أن هذا الكون يحتضن قوتين: قوة الحق وقوة الباطل، وأن جند الله واجبهم نصرة الحق ليزهق الله بجهادهم الباطل، وأن نصرة الحق تقتضي عند الحاجة أن نقاتل المشركين كافة، وأن نعتدي على من اعتدى علينا بالمثل وزيادة حتى يكون الدين كله لله والخضوع، وأن نرصد للكفار المعتدين كل مرصد.

ليس الإسلام دين سيف، لكن السيف وقوته كان ضامن جدية الدعوة وحامي حماها، في المدة الأولى للإسلام، ويكون في جولته الثانية هذه المنبعثة إن شاء الله تعالى بعد أن هبط المسلمون إلى حضيض الهزيمة بتنكرهم لمنهاج الله سبحانه. على المسلمين في حضيضهم الحالي يقع عنف مضاعف، عنف اليهود الغاصبين القابعين في فلسطين يخططون مع كفار العالم للإجهاز على رمق العرب، وبين العرب المتقاتلين في لبنان المتنافرين في غير لبنان عنف مثله. وفي أفغانستان يطحننا العنف الأحمر طحنا. فكيف ندعو لقومة غير عنيفة؟

أهي انتفاضة مثالية رخوة نريد أن ننسى في ظل أحلامها البأس الشديد العنيف الذي ما سبق مثله بين طوائف المسلمين رغم أن جل معاركهم كانت معارك داخلية قاتل فيها المسلم أخاه المسلم؟ أم هي تطهيرية تنشد البراءة من فظائع الملاحم الهمجية الحالية بين ثورتين، إحداهما قومية بعثية في العراق والأخرى إسلامية في إيران؟

ثورة، دماء، سفك أعمى، دمار الجيش، دمار المدن، مآت الآلاف من الضحايا، نزيف الموارد، تأجج الحقد، تأصيل عداوة جديدة خليق بها أن تبقى قرونا، نسأل الله عز وجل إطفاءها، بين شعبين كان من تأليفهما تأليف نواة الأمة الإسلامية الصلبة: شعب العرب وشعب الفرس المجيدين الكريمين الأخوين قبل دخول المفاهيم الصراعية الهمجية في ثقافتنا. كان بأس المسلمين بينهم شديدا في سلسلة مواجهات دموية ابتدأت بحروب الجمل وصفين، لكن هذه «القفزة النوعية» التي نراها في التطاحن بين المسلمين في لبنان وخاصة في خنادق الحرب الغشوم ومدن الخليج ومياه الأحواز لا شبيه لها من ناحية الكراهية القاتلة ومن ناحية الحجم، والاستمرار، والسلاح، والهجوم الأعمى على المدن، وأسلوب الأرض المحروقة، إلا في الحربين العالميتين اللتين توجت بهما أوروبا تاريخ صراعها الداخلي النموذجي في هذا الباب.

إنها روح جديدة، روح الحضارة الصراعية الأوروبية، هبت رياحها الهوج مع رياح القومية والطبقية، واختلطت مفاهيم العنف التي تتضمنها الكلمتان في فكرة الثورة البعثية التي لا تكفي إدانتها لهجومها على إيران الإسلام خدمة مجانية للجاهلية العالمية، بشقيها الروسي والأمريكي، التي لا تحب أن يخفق للمسلمين لواء حر لا يدين بالولاء إلا لله عز وجل.

لا تكفي إدانة دولة ولا إدانة المنهج الصراعي الذي أصبح قانون المجتمع الدولي من جراء سيادة تلك الحضارة التي يقف اليهودي ماركس على قمة فلسفتها التناحرية، واليهودي أينشتاين على قمة علمها مخترع القنبلة الذرية، واليهودي فرويد على قمة ثقافتها التي ترذل الإنسان وتنزله منازل الحيوان ليعي نفسه مجموعة من الهواجس الغريزية ينبض فيها التسافد والترافض ونزوات الانتحار الاجتماعي. لا يكفي إدانة ذلك المنهج الجاهلي، والجاهلية عنف قبل كل شيء، ولا إدانة زهرة الحضارة الجاهلية. اليهود يشنون على المسلمين من مواقعهم في مصارف أوروبا وأمريكا، ومن مواقعهم في إعلامها، ومن مواقعهم في كل مركز سياسي واقتصادي وثقافي حساس في العالم، ومن معسكرهم العملي، من معقلهم، من رأس الجسر، من فلسطين المحتلة، غزوهم لأرض المسلمين.

إنما يكون كفاء الغزو الحضاري الجاهلي الصراعي مقاومة إسلامية مؤهلة بعالميتها وإصرارها وقوتها ومنهاجها القرآني، مقاومة تبدأ ببناء نواة مجتمع الأخوة الإنسانية لما بعد انهيار الطاغوت الجاهلي اليهودي منهجا ونفيرا، على يدنا وعدا من ربنا غير مخلوف.

كتبنا مرارا أن الماركسية آفلة بأفول الإيديولوجيات، لم يبق لها زبناء إلا في البلاد المتخلفة ومنها بلاد المسلمين التي لا تزال تبحث عن منهج ثوري للتغيير. بيد أن روح الصراعية، روح العنف الجاهلي التي كانت سارية قبل ماركس وبعده في الثقافة الجاهلية، هي الآن بعد أن أعطاها اليهودي الثائر صيغتها المفلسفة «العلمية» أشد سريانا ولو رفض الرافضون الشكلية الإيديولوجية الماركسية.

تتقدم التقنية الثورية، الماركسية في جوهرها، اللينينية بعد ذلك في صورتها التاريخية، على شكل نظام مغلق محكم الربط مستوفي العناصر كامل العتاد. إنه نظام الاستراتيجية العنيفة التي ترصد الأسباب البعيدة والقريبة للثورة، وتضبط أصول المسلسل الثوري وعامله وأسبابه المباشرة وحركته في مراحل التكون والتنظيم والإنجاز.

وبما أنها مقاومة وقذف بالحق على الباطل بين الإسلام والجاهلية، فلا غنى لجند الله عن المعرفة التامة باستراتيجية العدو، إذ معرفتها من إعداد القوة التي أمرنا بها. لذا تجدنا نطيل التأمل في وجه الإيديولوجية ونستدير حولها لتنطق لنا بما هي به مفصحة لغيرنا من زبنائها المدمنين.

إذا قالت الماركسية: إن العامل الأول في الثورة هي الطبقة البروليتاريا ودعمت هذا الترشيح بالتحليل الاقتصادي الاجتماعي للعمال الذين جردتهم الرأسمالية من كل ملكية فتجيشوا بكيفية موضوعية ونشأ لهم وعي ثوري، فما نقول في الأسباب التي تكتل جند الله؟ وما نقول في وجودهم الموضوعي وفي درجة وعيهم بواجب القيام؟ وبأي تحليل ندعم ترشيحهم للمهمة التاريخية؟ ومن هم قبل كل شيء هؤلاء الجند؟ اسما، وأصلا اجتماعيا، ووحدة إرادة، ووحدة مصلحة، ووحدة هدف؟

وإذا قالت الماركسية إن العامل الثاني في الثورة، هو الحركة الاشتراكية العالمية كما يعبر ماركس، أو الطليعة الثورية كما يعبر لينين، فمن هم طليعة جند الله؟ وكيف يبعثون داعي الجهاد؟ وكيف يجمعون طاقاته؟ وكيف يؤطرونه؟

وإذا قالت الماركسية: إن مسلسل الثورة يتتابع في معارك تسقط الطبقة العاملة على إثرها الطبقة الرأسمالية، وتستمكن مما بيدها وتستبد بالأمر من بعدها، فما نقول عنه في مسلسل القومة؟ وهل نكون حققنا المطلوب بمجرد احتلال طائفة اجتماعية مراكز السلطان والاقتصاد التي كانت تحتلها طائفة اجتماعية أخرى؟

وإذا قالت الماركسية: إن هدفها من الثورة إسقاط الملكية الخاصة وإسقاط المجتمع الطبقي لتحل محلها الملكية العامة والمجتمع الشيوعي، فما هي عقدة الشر في المجتمعات الإسلامية المتردية، وما حظ الاستئثار بالمال في هذه العقدة؟ وهل يحق للقومة الإسلامية أن تتصدى أصلا للاقتصاد؟ وهل يجوز لها أن تصادر الممتلكات الظالم أصحابها؟ وكيف؟ ولماذا؟ وإلى أي حد؟

أسئلة تتفرع عنها أسئلة، وفي تاريخ الثورة الاشتراكية الشيوعية تجارب حبلى بالتحديات لنا في يومنا هذا الذي ننظر فيه، وفي غد القومة ومعمعانها إن شاء الله. والعاقل من اتعظ بغيره.

الطبقة التي تمسك المستقبل بيدها

طلع ماركس ورفيقه إنجلز بالإعلان الشيوعي في ظروف متوترة، إذ كان «البيان الشيوعي» في آخر مراحل الطبع عندما انفجرت الثورة الباريسية سنة 1848 . قبيل ذلك كان الزعيمان قد جمعا الفصائل الشيوعية المتفرقة التي كان صوت ماركس الصارم في التجمعات يستقطب اهتمامها برباطة جأشه ورفضه لكل معارضة. كان معاصره أنيكوف يلقب ماركس الخطيب «الدكتاتور الديمقراطي». في أحد الاجتماعات تقدم أحد الاشتراكيين، «واينلنغ» باقتراح «فكرة العدل والتضامن والمحبة الأخوية»، فغضب المستبد الفيلسوف غضبا شديدا عندما غمزه وينلنغ وهو المناضل الميداني مشيرا إلى: «التحليلات داخل الغرف المغلقة التي يكتبها بعض الناس (يعني ماركس) بعيدا عن العالم المتألم وعن هموم الشعب».

وما كان منه إلا أن ضرب الطاولة ضربة قوية وقال: «ما كان الجهل أبدا يخدم أحدا»، يصف نفسه بالعلم وخصمه بالجهل. هذا العلم الموضوعي الماركسي يرفض الإشارة إلى أية أخلاقية أو عاطفة إنسانية مثل العدل والأخوة والمحبة والتضامن. وهكذا أشار بتغيير «المجلة الشيوعية» الناطقة بلسان «عصبة الشيوعيين» التي ألفها مع صاحبه سنة 1847 من «كل الناس إخوة» إلى «يا عمال كل البلدان اتحدوا». ويكتب الرفيقان في أول وآخر عدد لهذه المجلة «لسنا تجار أنظمة (...) لسنا شيوعيين يريدون تحقيق كل شيء بالمحبة (...) لسنا من الشيوعيين الذين يوصون منذ الآن بالسلام الدائم».

في «البيان الشيوعي» قدم الرفيقان شخصيات المسرح التاريخي: البورجوازي والبروليتاري والشيوعي. وقدما القانون اللازم الذي يحكم الماضي والحاضر والمستقبل ويقضي أن يكون المستقبل حتما لا ريب فيه في قبضة الشخصية الثانية البروليتاري بقيادة الشخصية القدرية الشيوعي.

هذا «الفاعل التاريخي» جيشا وقيادة، يتقدم على مسرح التاريخ إلى النصر ومعه «الفكرة الأساسية الموجهة» وهي، كما يقول إنجلز، «ملك خاص مطلق لماركس». هذه الفكرة يلخصها المؤسس الثاني كما يلي: «إن الإنتاج الاقتصادي والنظام الاجتماعي المنبثق عنه لزوما بالنسبة لكل عصر هما أساس التاريخ السياسي والفكري لذلك العصر. وبالتالي فإن التاريخ (منذ اندثار الملكية القديمة المشاعية) كان تاريخ صراع طبقات، صراع بين الطبقات المستغلة (بالفتح) والطبقات المستغلة، صراع بين الطبقات المحكومة والطبقات الحاكمة في كل مراحل التطور الاجتماعي. لكن هذا الصراع وصل في العصر الراهن إلى طور أصبحت فيه الطبقة المظلومة (البروليتارية) لا يمكن أن تتحرر من الطبقة التي تظلمها (البرجوازية) دون أن تحرر في نفس الوقت وإلى الأبد المجتمع بكامله من الاستغلال ومن الظلم ومن صراع الطبقات».

إن الشباب في البلدان المتخلفة تثور مروءته لما يرى من فساد المجتمع واستعلاء الحكام والمحظوظين من زبنائهم، وعندما تجد هذه الفطرة النبيلة مثل هذا النفس الثوري، ومثل هذا الترشيح الماركسي للأمور العظيمة، التي تجعل المستقبل في يد من يعي كلمة السر العجيبة، تتوثب روح التضحية من أجل تحرير المجتمع في الصدور البريئة، وينخرط الشباب في العمل الذي يعطيهم قيمة ويكسو حياتهم الطلابية والعمالية معنى.

نشاهد اليوم وثبة فدائية عارمة بين شباب الإسلام، في إيران وفي لبنان، تفوق كل ما عرفه تاريخنا القريب. يريدها فدائية كفدائية الصحابة رضي الله عنهم. وهي فدائية تنكي العدو وتصنع التاريخ دون أن تتنازل عن معاني المحبة والأخوة والتضامن الإنساني. تلك المعاني التي تحاربها الماركسية وتعدها جهلا.

في الميدان مباراة بين الغضبية الشيوعية والغضبية لله عز وجل. في الميدان منافسة على مفتاح التغيير ومنهاج الثورة بين الإسلام المتجدد واليسار الثوري. فنخاف أن تسري عدوى الجاهلية الصراعية إلى جند الله عند لقاء النفسين في المياه الفكرية والساحات الميدانية.

إن أول جملة في «البيان الشيوعي» برنامج كامل ملخص لمسك المستقبل في اليد. «إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ صراع بين الطبقات». «هذا التحليل العلمي»، «الموضوعي» له إغراء كبير ينافس الإغراء الإيماني لنموذج الجهاد الإسلامي الأول في عين المراهق السياسي. أما المثقف المغَرّب فتظهر له الفدائية الإسلامية شيئا متخلفا تاريخيا لأن معيار الحكم عنده هو «العلم الماركسي» المكتمل. وكل فدائية غير فدائية الطبقة القدرية وطليعتها إنما هو تزمت ديني وجهل وفوضى.

الإمساك الماركسي بالمستقبل يتضمن برنامجا تدميريا شاملا بمقتضى الجدلية المادية التي لا تعرف مطلقا أخلاقيا ولا غيره، وبمقتضى المادية التاريخية التي ترى كل ثقافة ودين ونظام قيمي أحوالا نسبية تابعة للقاعدة الاقتصادية، نابعة منها.

في «البيان الشيوعي» يسخر المؤلفان من التهم الموجهة للشيوعيين بأنهم ينوون القضاء على الملكية الفردية، والحرية، والفردانية، والثقافة، والقانون، والأسرة، والوطن، والأخلاق والدين. يسخر البيان من المنتقدين الذين يعتقدون، في جهلهم ومثاليتهم، أن حقائق من هذا النوع لها وجود مستقل. يسخر من الذين يعتقدون أن الأفكار والقيم في أي عصر هي شيء آخر غير أفكار الطبقة الحاكمة وقيمها، تموت حتما بانهزام هذه الطبقة. كل «الإنتاج» الفكري والأخلاقي والقيمي ما فتئ يتغير ويتطور بتغير الإنتاج المادي.

وهكذا فنقض الملكية الخاصة لا بد أن يصحبه نقض الحرية ونقض الفردانية. وما هذان إلا قناع تتقنع به البرجوازية. فالمالك له حرية الملك والتصرف بينما لا يملك العامل شخصية ولا استقلالا. فلا بد من تدمير استقلال البرجوازي وتدمير حريته وتدمير شخصيته.

ومع تدمير حرية البرجوازية وشخصيتها واستبدال النمط الاشتراكي بنمط إنتاجها تضمحل ثقافة البرجوازية التي ليست إلا تحكما في الطبقة الكادحة لتصبح آلة طيعة، ويضمحل قانون البرجوازية الذي ليس إلا إرادة تلك الطبقة، وقد صاغوها شرعا يضبط المجتمع في اتجاه مصالحهم.

أما الأسرة البرجوازية فهي الانحلال المنظم، والمشاعية الفعلية في النساء. فلا يكتفي البورجوازيون أن يشتركوا في نسائهم أنفسهم، بشكل حضاري أنيق، بل يسطون على نساء الطبقة العاملة. فغاية ما يمكن لنقاد الشيوعية أن يأخذوه عليها في هذا الباب هو أنها تريد أن تطبق مشاعية مفتوحة معلنة في النساء بدل المشاعية الفعلية المنافقة التي تمارسها البرجوازية.

«إن العمال لا وطن لهم، فلا يمكن أن يأخذ منهم ما لا يملكون! العمال في وطن البرجوازية غرباء، فعليهم أن يبدأوا «بالاستيلاء على الحكم، وأن يكونوا أنفسهم طبقة قومية، وأن يكونوا هم أنفسهم قومية». ويعتقد مؤلفا البيان أن الفروق بين الشعوب، وأن التناقض بين القوميات، تتقلص مع انتشار النمو الصناعي، وأن سيادة البروليتاريا ستنتهي بالقضاء على هذه الفوارق، عندما تقضي على استغلال قومية لقومية من خلال القضاء على استغلال الفرد للفرد.

أما الأخلاق والدين «فلا تستحق أن تناقش بالتفصيل» الانتقادات الموجهة للشيوعية في شأنها. يكفي الاعتراف بأن ضمائر الناس في المجتمع تتغير بتغيير حياتهم الاجتماعية، وأن الأفكار البالية تنقرض بانقراض الأنماط البالية للحياة. إذا كانت الأخلاق والدين لم تضمحل حتى الآن فذلك لبقاء الصراع الطبقي الذي هي انعكاس له، فمتى انتهى الصراع الطبقي بسيادة الشيوعي فلن يكون لها بقاء. وبحسم الملكية الخاصة تحسم تلك التقاليد حسما نهائيا.

« الإرهاب أداة إقناع »

هذه كلمة مشهورة للينين. كانت الكلمة الموجهة والفكرة النهائية في تقنية الثورة بعد أن مرت الثورة الماركسية بمراحل كانت آلتها الإقناعية أكثر شيء الحتمية العلمية العتيدة. بعد موت ماركس ورفيقه الحميم إنجلز تشعثت الماركسية وانحلت عراها وتسطحت إلى إيديولوجية تطورية. حتى إذا بلغت الحركة الاشتراكية - الديمقراطية الدولية، ومنها الحزب الاشتراكي - الديمقراطي الروسي الذي كان لينين عضوا قياديا فيه، حضيض الانقسام والرخاوة الإيديولوجية، قام مجدد المذهب بإعلان القسر آلة ضرورية، وقام بتنظيم الآلة الحزبية الحديدية القادرة على الإرهاب الثوري، فكان ما كان.

لم يكن ماركس أول من حلل المجتمع إلى طبقات، ولا أول من دعا إلى اعتماد التناقض الطبقي أساسا للتحرك السياسي، فقد سبقه إلى ذلك مؤرخون واقتصاديون برجوازيون واشتراكيون. كما لم يكن لينين أول من دعا إلى العنف المنظم والإقناع الإرهابي. إنما كان لهذين العملاقين «فضل» صياغة مفهوم «دكتاتورية البروليتاريا» و«فضل» إبلاغ الحركة النابعة منه إلى غايتها المنطقية العملية: ألا وهي العنف الإرهابي.

أستعمل كلمة «دكتاتورية»، لا أترجمها بـ«استبداد» وأستعمل كلمة «بروليتاريا»، لا أعوضها «بعمال» لأن الكلمتين في سياقهما الغربي لا تحملان مدلولي كلمتينا العربيتين البريئتين اللتين لم يحملهما التاريخ ما حملت

الكلمتان في لغات الغرب من شحنات ليست فيها رائحة الرحمة، واللغة العربية لغة رحمة وحكمة، غلب عليها روح القرآن.

يبين ماركس نفسه الإضافات التي أضافها إلى الفكر الاشتراكي في خصوص الطبقية، فيقول في رسالة له إلى وايدمير (اسم يهودي) سنة 1852: «ما أتيت به من جديد هو أنني أقمت الدليل على:

1. أن وجود الطبقات لا يقترن إلا ببعض المعارك التاريخية من معارك تنمية الإنتاج.
2. أن صراع الطبقات يؤدي حتما إلى دكتاتورية البروليتاريا.
3. أن هذه الدكتاتورية ما هي إلا مرحلة إلى إلغاء كل الطبقات والوصول إلى مجتمع لا طبقي.»

كان ماركس ورفيقه يتصوران البروليتاريا وحدة دولية، لا ينبغي أن ينال من هذه الوحدة تعدد الأحزاب الثورية، وهكذا يكتبان في «البيان» عن الأحزاب العمالية المتعددة، ويوضحان أن «الشيوعيين لا يؤلفون إلا فئة من الحركة العمالية»، وأنهم «لا يكونون حزبا متميزا متعارضا معها» إذ إن «هدفهم المباشر هو هدف كل الأحزاب البروليتاريا الأخرى».

هذا فيما يخص موقف الحركة الشيوعية داخل الصف العمالي الاشتراكي. في ادعائها احترام التعددية الديمقراطية، لذا كانت حركة ماركس وأصحابه تصنف نفسها ويصنفها غيرها كاشتراكية ديمقراطية.

ومن منطق الاشتراكية الديمقراطية أن تتعايش من جانب مع الحركات المتعددة، وأن تسالم الدولة من الجانب الآخر. معناه أن الموقف الثوري لم يكن موقف تميز عدائي معلن، ولا كانت التقنية تستعمل الآلات الحادة.

كتب إنجلز سنة 1895 في مقدمته لكتاب ماركس «صراعات الطبقات في فرنسا» ما يلي: «نحن الثوريين، المحزبين، نزدهر بالوسائل المشروعة أفضل مما نزدهر بالوسائل غير المشروعة أو بالتخريب. إن أحزاب النظام، كما تسمي نفسها، تذيلُ في ظل الشرعية التي صنعوها بأنفسهم (...) بينما نحن، تحت ظل هذه الشرعية، تنبت لنا عضلات قوية، وتكتسب وجناتنا لون الورد، ونتنفس الشباب الأبدي».

بعد موت الرفيقين دخلت حركة «الدولية الثانية» في أزمة انحلال. فقام برنشتاين (اسم يهودي) في ألمانيا بالدعوة إلى «ماركسية جديدة إصلاحية» هي نقيض تعاليم «البيان». وتكاثرت النزعات «الانتهازية» التي تهادن البرجوازية وتنافق الدولة. وتواجه الثوريون والتطوريون. «الانتهازيون» يتلاعنون وفي أيديهم الصحف «المقدسة». وتضاءل حجم الثوريين المستمرين في «صلابة الصخر» ما بين 1900 و1914، وهي سنة الحرب العالمية، سنة انفجار غضب لينين على «الانتهازية» وندائه إلى «الدولية الثالثة».

كان لينين نفسه منذ اعتناقه الماركسية سنة 1893، وهو في الثالثة والعشرين، يتحرر بالتدريج من تعلقه المعجب بلا شروط بالمعْلَمَين، ويتخذ شيئا فشيئا الموقف الإرادي في مقابل الحتمية، ويتخلى شيئا فشيئا عن «المادية التاريخية» وعن الانحلال «الاشتراكي الديمقراطي» ليتصلب في الإرادية الطلائعية، وليصطبغ مفهوم «دكتاتورية البروليتاريا» عنده بصبغة الإرهاب والعنف المنهجي والانفرادية الحزبية. وبذلك فتح الطريق لجنون ستالين المبيد.

عاصر لينين فيلسوف العنف الفرنسي جورج صوريل الذي يعد قنطرة مهمة في الانتقال بالفكر الاشتراكي الثوري من الاختيار التعددي «الاشتراكي

الديمقراطي» إلى الثورية العنيفة المعلنة عن نفسها. كان لينين يتحدث ويكتب عن أفكار جورج صوريل «غير المنظمة»، لكن معاصري الفيلسوف الفرنسي يحصى منهم موسوليني وهتلر بالتأكيد، ويبقى السؤال في مدى استفادة لينين من رجل العنف هذا.

كان صوريل أهم من انتقد الاشتراكية الديمقراطية، ورأى في الأحزاب البرجوازية بؤرة فساد أخلاقي لا يصح التعامل معها، وأن على الاشتراكية أن لا تقع في مستنقع البرجوازية لكي تحافظ الإديولوجية الاشتراكية الثورية على سموها لتستطيع البروليتاريا إنجاز مهمتها التاريخية.

في سنة 1908 نشر الفرنسي العنيف كتابه «تأملات في العنف». ويدور الكتاب على فكرتين رئيسيتين متقابلتين، فكرة ظلام، وفكرة نور. أما فكرة الظلام فهي الرفض الخانق المرير العنيف للتعامل مع الديمقراطية البرجوازية والاشتراكية البرلمانية البغيضة. وأما الفكرة النيرة فهي العنف البروليتاري. يرى أن العنف وحده قادر على فرض أخلاقية تنقذ الاشتراكية من الغوص في الحمأة البرجوازية. وكان يسمي العنف، في صيغة الإضراب العام «أخلاقية المنتجين».

كان الرجل نصرانيا يفكر تفكيرا مخلوطا من مثالية الأخلاقيين مثل سلفه الاشتراكي الفرنسي برودون، وكان في نفس الوقت متمردا على غرار نيتشه، وماركسيا جدليا على شرطه، كان مخلصا لما تحمله الجاهلية من استعدادات العنف، فلسف العنف ورفعه إلى درجة الأخلاقية المرغوب فيها، وأوصى به.

قال: «إن العنف أصبح عاملا أساسيا من عناصر الماركسية». يرى أن العنف ضرورة أخلاقية. فيما بعد سيؤكد لينين، وهو المفكر المرتب الفكر،

أن العنف ضرورة عملية. قال صوريل: «إن النظرية الماركسية للثورة تتوقع أن يضرب الرأسمال في القلب.» فإذن لا بد من تربية البروليتاريا، في حضن النقابة، تربية سليمة على العنف. قال: «إن الخطر الذي يهدد مستقبل العالم يمكن تفاديه إن تعلقت البروليتاريا بالأفكار الثورية لتستطيع، على قدر الإمكان، تحقيق التصور الماركسي. كل شيء يمكن إنقاذه إن استطاعت البروليتاريا أن تقوي بواسطة العنف التمايز الطبقي (...). ليس العنف البروليتاري قادرا فقط على إنجاح الثورة المستقبلة. لكن يظهر أنه الوسيلة الوحيدة الباقية عند القوميات الأوروبية التي بلدتها العواطف الإنسانية».

ينظر صوريل بعين الازدراء إلى إعجاب معاصريه بالمعاملات الرقيقة. وكان يدافع بإصرار عن قانون لانتش الذي كان يقضي في أمريكا والمستعمرات الجديدة أن يحيط أخلاط الناس بالزنجي فيشنقوه أو يقتلوه على هواهم. كان الرأي العام في فرنسا يدين هذه الهمجية التي كانت قانون الولايات المتحدة الأمريكية حتى بداية هذا القرن. فكان هو يرى أن هذه الوحشية عنف أخلاقي ضروري.

كان يرى أن التقدم الأخلاقي، اصطناع العنف مذهبا، أمر ضروري للبروليتاريا كضرورة التقدم التقني للصناعة.

«سر علمي»

كان للماركسيين، ولايزال، زهو كبير بأنهم يمسكون دون غيرهم المعرفة التاريخية، يمسكون «السر العلمي» الذي أمحضه لهم المعلم ورفيقه، بينما غيرهم يهيمون على سطح الأحداث، على سطح تقلبات التاريخ التي لا يستطيعون الغوص تحتها ليطلعوا بجواهر الحكمة.

يعتقد الماركسيون أنهم على موعد مع التاريخ، في فترة تمحض فيها معبودهم هذا عن جيشين متقابلين، جيش المالكين الرأسماليين، وجيش البروليتاريا. يا لها من فرصة، ويا له من وضوح! إن الذين لا يفقهون المغزى الجدلي لهذه الوضعية والمخرج الحتمي للمعركة الحتمية لهم همل مثاليون عاطفيون. بلّدتهم الأحاسيس الإنسانية كما يقول صوريل.

كل المثاليات الأخلاقية، كالعدل، والحرية، والمساواة، وما إلى هذا من الشعارات البالية ما هي إلا غمغمات غامضة للضمير الإنساني انعكست على العقل قبل العلم واتخذتها الطبقات المتسلطة إيديولوجية تنويم. لذا فليس في «البيان»، كما يقول المفكر الإيطالي انطونيو لابرويلا، خطابة، ولا احتجاج. لا يشتكي من الإفقار، يريد أن يصنع له حدا. لا يسكب الدمع على أي شيء. دموع الأشياء تحولت من تلقاء نفسها مطالبة قوية عفوية. كل الأخلاق وكل المثالية تتلخص من الآن فصاعدا فيما يلي: وضع الفكر العلمي في خدمة البروليتاريا».

كل ما سوى الحتمية التاريخية الآذنة بلقاء الجيشين هراء إيديولوجي وليس على الحركة الطلائعية إلا اتخاذ المبادرة التاريخية، فتتدخل «اللحظة الذاتية»، كما يعبر لينين، ليتحقق التاريخ.

كان من الصعب إدماج المبادرة التاريخية، وهي فعل إنساني إرادي، في سياق التحليل «العلمي». فلما انتفض الثوار الاشتراكيون البلانكيون والبردونيون سنة 1871 وأقاموا في باريس «كومونة»، أي حكومة من نوع خاص، لقف ماركس وإنجلز هذه المبادرة من فم التاريخ، وأصبحت المبادرة الثورية علما ما كان لأحد أن يخترعه قبل وقوعه. ومن يومئذ تطورت فكرة «اللحظة الذاتية» لتصبح عملا عسكريا محضا في ممارسة لينين وحزبه البلشفي.

يقول إنجلز، يزري بفريق ممن يعارضون التدخل العنيف لتغيير مجرى التاريخ، وكأنهم استأنسوا بموجة الحتمية والعفوية وناموا معها، ما يلي: «أرأى هؤلاء السادة قط ثورة؟ إن الثورة بلا ريب أكثر الأمور سلطوية، إنه عمل بواسطته تفرض طائفة من المجتمع إرادتها على طائفة أخرى بواسطة طلقات البنادق، وضربات السكاكين، وطلقات المدافع. وكلها وسائل سلطوية قسرية لو كنتم تعلمون. لا مناص للحزب الذي انتصر من دعم غلبته بالتخويف الذي توحي به أسلحته للرجعيين».

في نثر المعلم الثاني لا حديث عن أية أخلاق، إنما هو عنف محض موضوعي، أما المختلط المثالي صوريل، الذي كان يسبح في نفس تيار الأفكار العنيفة، ويستنشق نفس الهواء الجاهلي، فإنه يدخل في المعادلة الاعتبارات النفسية الأخلاقية، ويضيف إلى شرط إنجلز، القسر والتخويف، شرطا تحسينيا: أن يكون العنف ذكيا. قال: «في الخراب الشامل للمؤسسات

والسلوك (في المجتمع البرجوازي) بقي شيء قوي، شيء جديد لم يلحقه أذى. هذا الشيء هو الذي يشكل، بالتعبير الواضح، روح البروليتاريا الثورية، وهذا الشيء لن ينجرف في الانهيار العام للقيم الأخلاقية إن كان للعمال من الطاقة ما يكفي أن يقطع الطريق على المفسدين البرجوازيين. وذلك بأن يجيبوا على مفاتحاتهم بأكثر أنواع الوحشية ذكاء.»

أما علم العنف عند لينين فلا يقف إلا عند السحق والمحق للعدو الطبقي. ولا يكفي عنده أن تمارس البروليتاريا[1] عنفها كما يتفق، بل يجب أن تربى على تلك الممارسة تربية علمية دقيقة. أليس إن ماركس وإنجلز يؤكدان أن العنف هو «قابلة كل المجتمعات القديمة الحبلى بمجتمع جديد»؟ وإنه «الآلة التي بواسطتها تفتح الحركة الاجتماعية (الثورية) طريقها، وتكسر الأشكال السياسية الميتة المتحجرة»؟

ما دامت المسألة بهذه الدقة، فَلْيَكُنْ قوابل الثورة وفاتحو طريقها ذوي مؤهلات حتى لا يكون عنفهم عشوائيا، وحتى تكون وحشيتهم من أكثر الوحشيات ذكاء! قال لينين: «إن ضرورة تربية الجماهير تربية منهجية على فكرة الثورة العنيفة هي من أُسُس مذهب ماركس وإنجلز.»

ويرى عبقري العنف والثورة أن الإطار الضروري لهذه التربية المنهجية هو الحزب الطليعي «الذي يمسك بالسلطة، وأن يقود الشعب كله إلى الاشتراكية، وأن ينظم حكما جديدا ويديره، وأن يكون المربي والمرشد والرئيس للعمال كافة وللمستغلين، حتى ينظم حياتهم الاجتماعية، بدون البرجوازية، وضد البرجوازية».

(1) كلمة "بروليتاريا" مذكر في اللغة الأجنبية، أؤنثه لمناسبة صيغته.

إلى ماذا يصير العنف بعد إمساك الثائرين بزمام الحكم؟ هل انتهت ضرورته؟ كلا، بل بدأ زمان ازدهارها.

في كتابه «الدولة والثورة» الذي نشره قبيل ثورة أكتوبر بشهرين، وقد ضمنه أقوى ما عنده من تحريض على العنف، يشرح لينين الموقف المطلوب من الدولة البرجوازية بعد أخذ مقاليدها. ولم يهمه بتاتا أن الدولة التي يحرض ضدها لا تزال دولة قيصرية فيودالية، لأن الثمانية شهور التي استولت فيها حكومة كرنسكي بعد إسقاط القيصر لبث أثناءها جهاز الدولة على حاله تقريبا.

في تعاليم لينين أن البروليتاريا بعد الاستيلاء على جهاز الدولة يجب أن تفرض دكتاتوريتها، بمعنى أن تنفرد بالسلطة وحدها، وأن لا تسمح لأي كان من الأعداء الطبقيين بالمكث لحظة في مناصب الدولة. وعندئذ تعود الكرة على حفنة الحكام القدامى الذين كانوا يضطهدون الملايين لكي يذوقوا مرير الانتقام. فإن بدرت منهم مقاومة، وهي أمر لا بد منه، ولا بد أن تكون مقاومة يائسة، فعلى البروليتاريا أن تسحقها بلا هوادة ولا رحمة.

من المنبر العلمي العالي لهذا الفقه العنيف، يتراأى للينين كل الانتهازيين من البرجوازية الصغيرة الديمقراطية وكأنهم أطفال أغرار يحلمون بـ«خضوع الأقلية خضوعا سلميا للأغلبية الواعية بواجباتها».

عاش لينين حياته في حمّى ثورية مستمرة، كان حارس الثورة من الانحرافات، كان المنظّر، والقائد المدبر، لا يمل من توجيه القافلة، وزجر المتهاونين. لا يهمه الأشخاص، بل يكسرهم كسرا إن هم حادوا عن مذهب ماركس، أي مذهب لينين. لم يكن يتخيل أو يقبل أن يكون هنالك فهم

للماركسية غير فهمه. لم يكن لقدرته على العمل حدود، ولا لاعتداده بنفسه مثيل. وكان لا يخجل أن يعلن أنه «الوحيد الذي معه الصواب».

كان يعتقد أن النظرية ضرورية للعمل، إذ «لا عمل ثوريا بدون نظرية ثورية». بيد أنه كان لا يتقيد بالعقيدة الماركسية رغم إعلانه الولاء الدائم للمعلمَين. يقول: «آه! إنهما رجلان! يجب أن نتعلم في مدرستهما. يجب أن لا نغادر هذه الأرض!» ويعلن أنه لا يستطيع تحمل «أي لوم في حقهما بهدوء».

ومع هذا فقد كان يتمثل بكلمة لغُوتْهْ الشاعر الألماني: «النظرية دكناء، الذي يبقى أخضر، هي شجرة الحياة الخالدة».

«العنف الهستيري»

هذه الكلمة المأثورة في ثقافة الغرب تربط لينين بخيط آخر من الثقافة الجرمانية، تضاف إلى خيط العقلانية الماركسية. وبذلك تكون اللينينية بعنفها وإقدامها واعتدادها بالنفس وليدة متكاملة لثقافة «برميثيوس» ذلك البطل الخرافي في ثقافة الإغريق الذي يرمز إلى الإنسان المتمرد على الألوهية. كانوا مشركين، فيقولون: تمرد على الآلهة.

وردت الكلمة المأثورة على لسان «فوست» بطل الدراما الشهيرة التي يرمز فيها أديب الجرمان وشاعرهم غوته للإنسان الأوربي الذي باع روحه للشيطان ميفستوفيلس لقاء المتع الدنيوية. هذه النزعة العميقة الغريزية في الإنسان الجاهلي، ومنه الإنسان الأبيض الأوربي بعد انفصاله عن النصرانية، إلى المتاع هي التي نطقت ساخرة من العقل ورقابته قائلة: «النظرية دكناء، الذي يبقى أخضر هي شجرة الحياة».

ويعجَب لينين السلافي بخضرة الحياة الغريزية كما يعجب بالجانب الآخر الأدكن. لتلك الخضرة وظيفتها، وهي الغطاء الإيديولوجي، أما الانطلاقة الأخرى، العنف الحيوي البيولوجي، فهي اللب.

دكناء هي كاذبة الحتمية «العلمية» التي كانت تتنبأ بثورة البروليتاريا وانتصارها في فرنسا الكثيرة الحركة، وفي ألمانيا المتوثبة، وفي إنكلترا العريقة.

كان إنجلز يكتب أن جل سكان إنكلترا من الطبقة البروليتارية، وأن روسيا لا تزال في الاقتصاد الإقطاعي. بمعنى أن روسيا لا يمكن عمليا أن تكون موطنا للثورة البروليتارية نظرا لأن هذه الثورة لا تنشأ ولا تنمو ولا تنضج ولا تولد إلا في رحم النظام البرجوازي ومنه. فإذا بالثورة تنقدح وتنتصر في المجتمع الروسي الذي ما بدأ، باتفاق المحللين الماركسيين أنفسهم، يعرف الرأسمالية إلا منذ ثورة 1905 التي لم تتم. هجرت الحتمية، بأسرارها العلمية، الموعد الذي ضربه لها ماركس وصاحبه في مهد البرجوازية والاقتصاد الرأسمالي، وتاهت بدَلاَلٍ ففضلت روسيا الحديثة العهد بالعصر، الغارقة في رواسب الإقطاع، وفضلت الصين الفلاحية المتخلفة، وظهرت في منغوليا الخارجية، وحملتها الجيوش الحمراء الغازية فأوطنتها أوروبا الشرقية بسر معاهدة يالطا وإرادة الدولة العظمى، واقتناها كاسترو اقتناء البضاعة. دكناء هي كلمة إنجلز. إذا نظرنا إليها من هنا بعد قرن من التاريخ رأينا نجاح الثورة البلشفية بفضل العنف والعزم اللينينيين لا تطبيقا لعلم الاجتماع الإنجلزي وعلم التاريخ الماركسي. كتب إنجلز في «تعاليم الماركسية» يقول : «إن الثورات لا تحدث بناء على أمر صدر، وإنما هي دائما وأبدا المحصلة الضرورية لظروف مستقلة كليا عن إرادة وقيادة الأحزاب، وحتى الطبقات».

الأخضر الذي كتبت له الحياة هي الإرادة الإنسانية الحيوية. وبهذا كان الجانب الغريزي الجرماني في تكوين قائد ثورة أكتوبر المنتصرة هو الشخص المعنوي الحقيقي، والإيديولوجية الماركسية الإنجلزية لباس.

إننا إذ نطيل في تحليل الثورة في صيغتها، أو صيغها الجاهلية لا نفعل ذلك للتاريخ، بل نستعرض المنهجية والجاهلية الصراعية بين يدي عرضنا لمنهاج

القرآن. يقول الله تعالى في آيات الاقتحام من سورة البلد: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[1] فالرحمة بالإنسان عقيدتنا، وللجاهلية تركيب عنصره الأساسي العنف. يقول الله عز وجل: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ من نَّجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعْرُوفٍ أو إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[2].

فما من كلمة يتناجى بها المؤمنون، أو يكتبونها، أو ينشرونها دعوة إلى تغيير المجتمع البشري، إلا تدمغ بأنها لا خير فيها إن لم تكن الرحمة بالخلق كافة، والإصلاح بين الناس، والرفق بهم إلى طريق المعروف طابعَها ومحركَها. من سنة الله في الكون أن المواجهة والمدافعة والمغالبة، والقتال آخر الأمر، من طبيعة الحياة الأرضية. فلا يظن ظان أن الإسلام، وهو البديل النوراني للجاهلية الدكناء تقوم له قائمة في شوطه الثاني، المؤيد إن شاء الله، إلا كما قامت له في الشوط الأول، أي بالجهاد والفدائية، والقتال كلما اقتضى الحال، لا بد من القوة. لكن البون شاسع بين من له مقاصد رحيمة بالخلق كافة، ديناً يدين به الله عز وجل، يستعمل القوة بالحق ليدحض الباطل، وبين من دينه العنف منهجية وتطبيقا وهدفا.

كان لينين يعتقد أن «العنف أداة إقناع»، ويكتب ذلك ويطبقه ويؤسس الممارسة الستالينية الفاتكة. وكان صوريل يؤلب على العنف الذكي. لعل ترجمتي لكلمته غير وافية بمقصوده، فهو يكتب «**Violence intelligible**»، ما يعني «العنف المعقول»، أي الذي يمكن فهم أسبابه. لينين عنفه مغطى

(1) سورة البلد، الآية: 17.

(2) سورة النساء، الآية: 114.

بالنظرية «الدكناء» بطبعها للتعمية، وعنف صوريل عنف فوضوي لفوضوية عقله. فلذلك يعمد إلى الأخلاقيات ليتخذها سندا.

لم تلد العبقرية الأوربية، الجرمانية غريزة وفلسفة وعلما، هذين النوعين الهجينين من أنواع العنف. وإنما أعطت هذا القرن، وسائر القرون الباقية من عمر الدنيا للعبرة، نموذجا للعنف الصرف، العنف المحض، العنف الهستيري، أي الجنوني، كما يعبر هو نفسه. إنه عنف النازية الذي شخصه هتلر. وما هتلر وستالين شخصان كانا ومضيا، لكنهما وجه الجاهلية المكشوف، يجمع كل ما في الجاهلية من استخفاف بالدين وبالإنسان، ومن عنف لا إنساني يغذوه جنون العظمة، وجنون العطش للدم، وجنون الاستكبار في الأرض. تمثل كل ذلك في رجلين يقدُمان قومهما كما يقدم فرعون قومه.

كان لنا جبار اسمه الحجاج بن يوسف، كان من رواسب الجاهلية العربية البدوية الساذجة في تاريخنا الإسلامي. كم يبدو لنا ساذجا وطفوليا وعيده حين خطب في الكوفة قائلا: «إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها». برنامج الإنتاج بالتفريد! أين جاهلية العرب البدوية «المتخلفة» من فلسفة دكتاتورية الطبقة الكادحة، والحملات السياسية لتصفية العدو الطبقي، ومعتقلات بولونيا، ومعتقلات إعادة التربية بالعمل؟ لعل عقيدة «شعب الله المختار» اليهودية تمت بصلة لهتلر عدو اليهود وسوط القدر الإلهي الذي سلط على قوم تأذن الله رب العالمين ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.

ولعل عداء هتلر الخاص لليهود كان مزاحمة منه لهم ليأخذ حظه من القيادة بإزاء عباقرة الفلسفة والجاهلية، والعلم الجاهلي، والخبرة الجاهلية بنفس الإنسان: ماركس وإينشتاين وفرويد.

يهود وألمان! إننا نفكر بالصدفة، ونؤمن بأن قدر الله عز وجل رسم للإنسانية طريقا لا بد أن تسلكها، وفي هذه الطريق يمثل بنو إسرائيل فوجا أساسيا من أفواج السالكين، فوجا هم أعداء الإسلام من أهل الكتاب، وهم اليوم قد تربعوا على القدس الشريف مهد الأنبياء، وقد أمدهم الله جلت عظمته بأموال وبنين كما وعد ووعده حق، وما البنون بالكثرة، لكن بالنوع: ويكفي ذكر أسماء ماركس وإينشتاين وفرويد لترتسم معالم الثقافة الجاهلية التي على الإسلام أن ينقذ منها البشرية. وما لينين وستالين وحتى هتلر المجنون إلا أطياف عابرة، ويبقى بنو إسرائيل على موعد حاسم مع الإسلام.

الوحش الكاسر

فاضت عصارة الفلسفة الجرمانية من معين هيجل، فما انعقدت قوة فاعلة وفكرا موجها عم العالم إلا على يد اليهودي الألماني ماركس. وتطورت العلوم الكونية على مدى ثلاثة قرون في أوروبا فما فتح أبواب العصر الذري إلا يهودي ألماني يسمى أينشتاين. وبقيت الثقافة الأوربية بلهاء بليدة في خصوصيات النفس البشرية حتى أسرع إليها بالمعرفة العالية يهودي ألماني هو فرويد.

كما طرحنا بأنفسنا السؤال الحرج الذي يلقيه علينا واقع استحالة اللقاء بين الإسلام والماركسية وهو: لماذا نعادي الماركسية، لإلحادها أم لنشدانها العدل؟ وكما أجبنا أيضا عن الخلاف المنهجي بيننا وبينهم في أسلوب إقامة العدل، رافضين العنف والتطاحن الطبقي، فمن اكتمال الصورة المنهاجية في هذا الباب أن نطرح سؤال: لماذا نعادي اليهود؟

في هذه الفقرة ننوي الحديث إن شاء الله عن هتلر الطاغية الذي كان العداء العرقي القومي العنصري لليهود أهم دعامة في نظريته. فإن كان عداؤنا للذين كفروا من أهل الكتاب عداء مصيريا، فما ذاك إلا لكفرهم، وصدهم عن سبيل الله، وأكلهم الربا حتى طوقوا مالية العالم، وقتلهم الأنبياء بغير حق، إلى آخر ما وصفهم الله عز وجل به، حسد وحقد وكذب وبهتان وتزوير. بإزاء تراكم العداء العربي العاجز لمحتلي فلسطين بوصفهم السطحي كطليعة للإمبريالية الأمريكية، لن يسلحنا للمعركة المصيرية مع بني إسرائيل إلا الوعي القرآني

بمن هم اليهود في تاريخ النبوات، وبمن نحن في هذا التاريخ، وبما هي جريمتهم، بل جرائمهم التي أحصاها القرآن الكريم، وبما هي الرسالة التي نحملها. اشتكت صفية أم المؤمنين إلى رسول الله ﷺ من نسوة عيرتها بأصلها الإسرائيلي، فعزّاها النبي الكريم حيث نبهها إلى أنها لو شاءت لافتخرت عليهن بخاليها النبيين الكريمين موسى وهارون. ما للعنصرية العربية مجال في البغض الإسلامي لقوم غضب الله عليهم.

أما هتلر، فلئن كان كثير مما وصف به يهود ألمانيا يتطابق ونعوت الأقلية المخربة، فإن جنونه القومي أركبه الشطط في الحكم ودفعه إلى الظلم الشنيع حين دفع بطوائف منهم، تضخمها الدعاية اليهودية لغاياتها، إلى المحرقة. كان حزبه القوي الاشتراكي النازي حركة مضادة للماركسية التي يعتبرها اختراعا يهوديا. ويحصي أسماء البارزين من دعاتها، فإذا هم يهود. ويبدي عداء للدوليات، برجوازية كانت أم اشتراكية، يعتبر أنها اختراع يهودي يحمي تحت نظامه اليهودي العالمي المندس بين كل الشعوب.

يمكننا الآن مع تقدم الأيام أن نلاحظ صلف اليهود وعنفهم الجهنمي على العرب المغلوبين المقهورين. فهل كان فيلسوف التطاحن الطبقي ماركس ومخترع أداة التدمير أينشتاين، ومرذِّل البشرية بإهباطها إلى حضيض الغرائز فرويد، إلا لقاء بين الصفات اليهودية الموروثة لعنة من الله على قوم كافرين وبين الخصائص الغابوية لحضارة نشأت في أحضان الوحشية القبلية الأوربية وتغذت بأساطير الجرماني مثال العرق الأبيض الآري الصافي؟

من يتفوق في الهمجية: الذين أسقطوا القنبلتين الذرتين على هيروشيما ونكاساكي، أم الذين يطلعون على متن الدبابات الطائرة في أفغانستان ليحرقوا

الحرث والنسل، أم الذين أغرقوا بيروت تحت وابل من النار، أم الذين أفنوا شعوب الهنود الحمر بأمريكا، أم هتلر، أم ستالين، أم...؟

كل أولئك هم الرجل الأبيض الغريزي، واليهود الساميون ما احتلوا في ذلك الصف مكانة ممتازة إلا لرابط الاستعداد. وما عن عنصرية ننطق.

كتب هتلر كتابه «كفاحي»، وهو كتاب مجنون مثل صاحبه، يقدم فيه برنامجه للحكم. وقد لاقى الكتاب نجاحا كبيرا لا لقيمته الفكرية إذ لا قيمة له، لكن لأن صاحبه خاطب، في الوقت المناسب، أزمة قومية إثر هزيمة الحرب العالمية الأولى، وأزمة اقتصاد في الثلاثينات، باللهجة المناسبة، خاطب الغرائز الوحشية التي خربت أوروبا ودفنت ألمانيا تحت الرماد.

عرف هتلر واجب الإنسان الأبيض وحقه وكرامته، فحصر ذلك في أمر واحد. قال في كتابه المذكور بعد أن سخر ممن يعارضون دعوته لسحق الأجناس الوضيعة: «لا! ليس للإنسان إلا حق مقدس واحد، وهذا الحق هو في نفس الوقت أقدس الواجبات، وذلك أن يحافظ على دمه نقيا، ليمكن بالمحافظة على أشرف ما تملكه الإنسانية تنمية إعداد الإنسان المتفوق إلى أقصى حد ممكن». يعني هذا أن من لم يحافظ على نقاوة دمه، أو لم يرث إلا دما منحطا، فلا حق له إلا في الفناء.

ويأسف كثيرا على اختلاط دم الألمان حتى فقدوا الغريزة القوية التي لا بد منها ليتقدموا أمام العدو وكأنهم «قطيع مندمج». وترد في جُمَلِه المبعثرة تشبيهات بالحيوان الذي لا يتناسل إلا مع جنسه، ولا يخرق القانون الأساسي الذي يقضي ببقاء العرق صافيا.

كان يرى للدولة النازية واجبين: واجبا داخليا هو تنشئة أجيال ألمانية تتمتع بالطول الفارع، وزرقة العينين، وشقرة الشعر، وطول الجمجمة، وسائر الخصال الآرية المتفوقة. وواجبا خارجيا هو السيطرة على الأرض اللازمة لحياة الجنس الشريف ومسكنه. ويستعمل كلمة «Habitat» التي تدل في اللغات الأوربية على المجال الطبيعي لصنف معين من أصناف الحيوان. ويوصي في كتابه بالاستفادة من تقدم الطب ومن قوة القانون لمنع تناسل الأفراد الذين لا تتوفر لهم الخصائص العرقية المتفوقة، كما يوصي بمنع زواج الألماني والألمانية بدم منحط. فلما وصل الحكم طبق القسوة الهستيرية لتحقيق هدفيه، معتقدا أنه يخدم الإنسانية جمعاء إذ يقدم لها أسيادا.

ما تجاسر المستعمرون أمس، ولا يتجاسر المستكبرون في الأرض اليوم، على إعلان احتقارهم للبشر. تمنعهم من ذلك قشرة من الثقافة الإنسية. وإلا فإفناء الشعوب المنحطة، والسُؤْدَد عليها، ونزع مسكنها هو برنامج الإنسان الأبيض، كان ولا يزال. واليهود لا تقف نواياهم دون إهلاك العرب والمسلمين واحتلال بلادهم برمتها.

كان هتلر يتنبأ بظهور شعب يحقق عظائم الأمور، لا يقهر ولا يغلب. «لأن أعظم الانقلابات التاريخية على وجه الأرض لم يمكن لأحد أن يتصور حدوثها لو كانت دوافعها الفضائل البرجوازية التي تحبذ السكون والنظام لا الانفعال المتعصب بل الهستيري». هذه عبارته.

كان زبناء دعاية هتلر هم الجماهير الماركسية الذين استطاع أن يجذبهم. فبرهن بذلك على أن دعايته سرت إلى أعمق مما تسري دواعي الحقد الطبقي. كان يخاطب نخوة العرق، ويستدعي جيش الشباب الألماني ليعبد إلها آخر

غير المال. كان يخاطب الشعب السامي يعرض عليه برنامج السيطرة على الأرض من خلال توحده القطيعي. بينما كانت الأحزاب الأخرى في ألمانيا تنشد سلما، كان هُوَ يوقد لهب الغضب على فرنسا التي أهانت قومه بمعاهدة فِرساي. يقول: «كم من دعاة السلم يتمنون اليوم في عمايتهم، وبواسطة تباكيهم وهرائهم، أن يصلوا إلى هدف إعزاز ألمانيا. هذا الإعزاز: لن يتحقق بواسطة أغصان الزيتون التي تحركها بدمعة سخية بواكي السلم، لكنها تتحقق بالسيف المنتصر، سيف شعب من السادة يضع العالم كله في خدمة حضارة عليا».

كان الوحش الكاسر هتلر عندما يخطب «يحمله الانفعال، ويتعالى نفَسه، وتنفتح مناخره». وكان يزدري ازدراء ظاهرا الجماهير التي تتجمع لتسمعه. فكان من برنامجه «أن تدخل الدعاية الحياة الألمانية كلها، وأن تُنشأ في كل ألماني وألمانية استجابة ذُهانية «Psychose» وخوف دائم، وأن يُقْسر الذكاء الألماني على الطاعة السلبية، العمياء، الميكانيكية نوعا ما، لقوانين وأوامر القائد».

العنف المنهجي ينتهي بالمجتمع المتعامل بالعنف، أخذاً وعطاء إلى الطاعة القطيعية. وهي سر نجاح الهتلرية والستالينية لا ريب. والله غالب على أمره.

الإرادة الفولاذية

تشبيه نظام الدولة بالآلة تشبيه معهود عند القانونيين الألمان. فمنهم أخذه ماركس وإنجلز وهتلر ولينين. الدولة في هذا العرف القانوني تنظيم تقني محض، أجزاؤه الجهاز الإداري والمكاتب وأدوات القمع من شرطة داخلية، وخصوصا الجيش النظامي.

يعتبر الماركسيون أن آلة الدولة سلاح في يد الطبقة البرجوازية، فأول واجبات الثورة أن تنتزع هذا السلاح الذي بواسطته تقمع الطبقة الحاكمة الطبقة المحكومة. وكذلك يعتبر هتلر أن آلة دولة جمهورية فايمار المتصالحة مع العدو أجنبية عن الشعب لا تخدم مصالحه، فما كان منه إلا أن وثب على الدولة سنة 1923 في محاولة انقلابية فشلت. وفي السجن كتب كتابه العجيب البدائي النزعة الركيك التركيب الذي بلغ مع ذلك شعبية نادرة المثال في أمة تعد أرقى الأمم الأوربية ثقافة.

كانت الفكرة الانقلابية جوهر الحركة النازية تلميذة الحركة الفاشية الإيطالية في هذا الباب، وكانت نفس الفكرة تختفي تحت جلباب الجدلية في التخطيط اللينيني باسم «اللحظة الذاتية» أو «المبادرة التاريخية».

كانت «فلسفة» هتلر هي الذاتية والمثالية والأسطورية القومية بعينها. لذلك لم يحسب للموضوعية حسابها عندما وثب على الحكم في ظروف غير مناسبة محاولا تقليد «المسيرة على روما» التي نجحت على يد موسوليني «القائد»

الذي كان معجبا به أيما إعجاب. أما لينين فقد استنبط من فكر معلمه ماركس أن الدولة آلة قمع في يد الطبقة الحاكمة، وأن موظفيها يتحولون أسيادا على الطبقة المحكومة مهما كانت المرحلة التاريخية، لكن أنسب مرحلة في التاريخ للوثوب على الدولة هي المرحلة التي تكون فيها الدولة في يد الديمقراطية البورجوازية.

يشرح لينين في كتابه «الدولة والثورة» الذي ضمنه آخر ما وصل إليه اجتهاده حتى قبيل شهرين من ثورة أكتوبر، أن هناك فكرة أساسية، كأنها الخط الأحمر تحت كل ما كتبه ماركس، مؤداها أن «الجمهورية الديمقراطية هي أقرب طريق يوصل إلى ديكتاتورية البروليتاريا». وذلك أن النظام الديمقراطي شكل «أكثر سعة، وأكثر حرية ووضوحا للصراع الطبقي والظلم الطبقي». وبذلك تنكشف حاجة الطبقة الكادحة إلى الإنصاف، ويقتنع الكادحون لما يرون من ظلم وما ينالهم من بؤس أن مطالبهم لن تتحقق «حتما وبصفة لا تقبل الشراكة إلا في دكتاتورية البروليتاريا، أي في إدارة البروليتاريا لشؤون الجماهير».

وكذلك كان يعتقد هتلر، ومذهبه هو النقيض الجدلي التام للماركسية. وما كان يعتقده ماركس وشارح مذهبه الروسي القائد، كان هتلر ينتقد الديمقراطية انتقادا جذريا لأنها تحل «قرار الأغلبية الذي يقتل كل روح للمسؤولية، وتناقض «المبدأ الطبيعي الأرستقراطي» وهو قرار القائد الفرد. فمن أعالي هذا التصور الأرستقراطي للسلطة كان ينظر إلى النظام الديمقراطي وكأنه انحدار وانصباب إلى الحكم الأسفل، حكم العامة، حكم الرعاع والأوباش، حكم الشيوعيين. كان يعتقد أن الديمقراطية ما هي إلا نظام يوطئ الطريق ويمهد الفراش للشيوعية. يقول عن الديمقراطية «إنها بالنسبة لهذا الطاعون العالمي (يقصد الشيوعية) بمثابة الأرض الخصبة التي تنتعش فيها العدوى».

وأضاف لينين إضافة هي من عنده خالصة إلى تراث معلمَيه، تزيد الموقف الموضوعي للثورة وضوحا. هذه الإضافة هي مفهوم الإمبريالية، هذه الكلمة التي يستهلك منها اليساريون استهلاكا كثيرا.

لما نشبت الحرب العالمية الأولى سنة 1914، بادر لينين إلى أن يقول كلمتهُ في تلك الحرب، فسماها حربا إمبريالية. كان قد استقل أتباعه البولشفيك، وهم أغلبية الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي كان ينتمي إليه، عن الأقلية «مِنْشِفيكْ» منذ عامين فقط سنة إعلان الحرب. وكان لينين يسيطر على اللجنة المركزية وعلى جريدة البرفدا التي أسسها. وجدته الحرب العالمية إذن واثقا بنفسه أشد الوثوق، وراءه حزب منظم تنظيما حديديا.

مع هذا فلم يكن يخطر له ببال أن تنجح الثورة في الظروف الموضوعية التي كانت تسود بلده المتخلفة. كان لا يزال يفكر أيام كتب كتابه «الإمبريالية، المرحلة القصوى للرأسمالية»، المنشور سنة 1916، أن الرأسمالية التي كانت في عهد ماركس كانت رأسمالية «تقدمية» بالنسبة للمرحلة الإمبريالية على عهده. وبالتالي فالرأسمالية الأكثر إمبريالية هي أقرب إلى الانهيار من غيرها، وجلي أن روسيا، وعمر الرأسمالية فيها يومذاك إحدى عشرة سنة بإجماع الشيوعيين أنفسهم، أبعد الرأسماليات موضوعيا عن أن تكون طريقا لدكتاتورية بروليتاريا لا تزال في المهد. الإمبريالية في تحليل القائد الذكي الذي لم ينتظر حدث أكتوبر الهائل الذي قاده هو بنفسه وأنجحه بعد عام من نشر كتاب الإمبريالية، هي المرحلة التي تتحول فيها المنافسة الرأسمالية إلى احتكار. أدى جشع الاحتكارات (تروستات وكارتلات وأبناك يسودها الرأسمال المالي) وحاجتها للتوسع إلى غزو الأسواق الخارجية بعد

استيلائها على الأسواق الداخلية. فالحرب القائمة «حرب نهب وغزو وقرصنة لتقسيم العالم، وتوزيع المستعمرات، وإعادة توزيعها، وتقسيم مناطق نفوذ رأس المال».

ها هي ذي الإمبريالية خرجت من أحشاء الرأسمالية. فالاحتكار يولد بشكل حتمي تفسخ الأوضاع. كل تناقضات الرأسمالية ازدادت حدة. وبذلك فالمرحلة الإمبريالية هي بلا ريب المعبر الأقرب عن الرأسمالية الطفيلية المتعفنة المحتضرة إلى النظام الاقتصادي والاجتماعي المحتوم، ألا وهو الاشتراكية ثم الشيوعية.

نجحت ثورة فبراير 1917، وتكونت حكومة كِرِنْسْكي البورجوازية الائتلافية، ودخل لينين إلى روسيا من منفاه بسويسرا وبمساعدة من ألمانيا التي كانت ترجو أن تعرقل اشتغالات لينين الثورية جهود الحرب وتنهيها. في شهر أبريل قدم لينين مقترحاته المشهورة بـ«طروحات أبريل» التي تقضي بالقيام بالثورة الشيوعية حالا ضد حكومة كرنسكي. لا عجب أن أفزع اقتراح لينين، المخالف لكل قواعد الماركسية، كل الشيوعيين. حتى إن أكثرهم يسارية عد فكرة لينين هذيانا. بعد شهر أو يزيد قليلا من سقوط القيصر، يريد هذا الرجل المتألق في سماء النظرية والتنظيم أن ينقُضَ بمبادرته الغريبة كل ما أقرته العقيدة! أين الرأسمالية الوليدة، لا تكاد، في روسيا من البلاد العريقة في الرأسمالية التي رشحها ماركس للثورة؟ أين لروسيا الغارقة، لا تزال، في مخلفات النظام الإقطاعي في الاقتصاد وتركيب الدولة أن تكون رحما تولد منها الثورة البروليتارية. ما يشبه هذه الطفرة التي يقترحها لينين إلا توقع أن تحبل جارية في الخامسة من عمرها بجنين سليم وتضعه وضعا سليما.

هنا انتقل لينين بحذقه الذكي من المنطق الجدلي الصارم الذي طالما شرحه والتزمه في تحليلاته إلى محض التشبيه. كان لا بد له من مستند تاريخي لتبرير وثبته. فكتب في جريدة حزبه البرفدا يقول: «إن من السهل أن يصرخ الناس، ويعلنوا، لكن من الصعب أن يحكي المرء كيف كان يفكر ماركس وإنجلز وأن يذكر الناس بذلك». وبعد أن غطى مواقعه من الهجوم على عقيدته وإخلاصه للمذهب، ذكر أن ماركس وإنجلز أكدا أن الدولة التي أقامتها كومونة باريس سنة 1871 هي نوع الدولة الصالحة للبروليتاريا. وزعم أن وضع السوفيات في روسيا وتعاظمها ومواقعها وقوتها في أيامهم تلك يشبه تماما وضع الثورة التي أسست الكومونة.

بهذا الزعم وبهذا التشبيه طوى لينين الجدلية، وألجم أفواه المعارضين، وتقدم للميدان بالإرادية الفولاذية التي كانت، ولا تزال، عامل التغيير الأول. وكان الله على كل شيء مقتدرا.

كسر آلة الدولة

وكذلك تقدم بعده بِينيتُو موسوليني وأدولف هتلر. فقد كان الثلاثة انقلابيين، مدار سياستهم وحركيتهم القفز على الدولة للاستيلاء على الآلة المحركة للمجتمع المتحكمة فيه. وما امتاز لينين عن معاصريه إلا باعتماده على النظرية «العلمية» التي تحلل المجتمع وتطوره على أساس اقتصادي. وقد رأينا كيف كانت الحركية السياسية، والتحزب، والتنظيم والعنف والتربية عليه، هي العامل الحقيقي لنجاح وثبة لينين. وكان اضطراب الحرب وتقهقر الجيش الروسي فيها كافيا لإعطاء ثورة فبراير، التي شاركت فيها كل الأحزاب المعارضة للقيصرية، فرصتها التاريخية، كما سنحت بعد سبعة شهور فرصة ثانية اغتنمها لينين المقدام على رغم أنف النظرية.

ومن ظروف الحرب، وعلى إثرها، برز موسوليني في إيطاليا، ودعا بدعاية قومية تذكر بمجد الشعب الوارث لإمبراطورية روما. وبالقوة قاد موسوليني مسيرته على العاصمة ففرض على الملك أن يعينه رئيسا للحكومة، ومن ذلك التعيين قفز على الديكتاتورية المطلقة، وأوصل الدولة القومية إلى أقصى صورها: الدولة، ولا شيء غير الدولة، والقائد، ولا أمر غير أمره.

أما هتلر فبعد أن فشلت وثبته سنة 1923، وبعد السجن، عاد يلتمس طريقا إلى الحكم عن طريق الديمقراطية والانتخابات الحرة. وعن هذه الطريق التي كان يظنها لا تخدم إلا صالح غرمائه الشيوعيين، وصل إلى الحكم بسلام ليؤججها في العالم نارا وقودها الفعلي الأجناس البشرية «السفلى».

قومية العنف والانقلاب هو المثال الذي يقدمه لنا تاريخ أوروبا. فما من قومي عربي إلا والانقلابية جزء لا يتجزأ من ثقافته. ذكرى مجد روما صنعت عصبات «القائد» الإيطالي، ودولة «عبادة الدولة». وحلم التفوق الجرماني صنع الوحدة القومية الاجتماعية، وفتح الطريق للزحف إلى السيطرة على العالم سيطرة الأسياد. والإمساك بجهاز الدولة كان نقطة التحول من حماس فوار، وعنف بلا حدود ولا موضوع، إلى عنف الدولة الكاسحة التي تجمع القطيع المطيع خلف القائد العبقري. وما من اشتراكي عربي، سواء أخفى ولاءه الفكري للاشتراكية العلمية أو لم يخفه، إلا وصورة لينين ماثلة بين عينيه. معناه أن الحركية والتنظيم الحديدي والوثبة عند الفرصة هي المبادئ والنهايات في تركيبه الإيديولوجي، إلا أن يكون هذا الاشتراكي مثقفا يتسلى باجترار النصوص «المقدسة» الماركسية وبتقليبها قبولا، وردا، وتعليقا، وشرحا.

كان لينين يعتبر، كما رأينا، أن الرأسمالية في عهد ماركس كانت «تقدمية» أي أنها كانت في مرحلة لم تتقاطب فيها الطبقتان كما تقاطبتا في عهد «الإمبريالية» على عهده هو. ولم يتساءل عن الدولة وجهازها: هل بقيت الدولة في عهده على ما كانت عليه في عهد معلمه؟ دولة الرأسمالية في وسط القرن التاسع عشر هل تطورت بموازاة الاقتصاد، كما هي العقيدة أم لا؟ فإن كانت الدولة قد تطورت فلا شك أنها أصبحت على عهد الإمبريالية آلة أقوى وأدق وأكثر امتدادا. فحيازتها إذن تصبح أكثر ضرورية، لأنها تعطي الثورة قوة هائلة.

لكن لينين عندما وثب في روسيا لم يهمه مرحلة التقاطب الطبقي ولا درجة تطور الدولة. إنما رأى الفرصة فارتمى بكل قوته على آلة الدولة ليحطمها

ويكسرها ويقضي عليها كما تأمر بذلك النظرية الماركسية التي شرحها في كتاب «الدولة والثورة».

الانقلابان القوميان في إيطاليا وألمانيا اعتمدا إيديولوجية وحدة الشعب، بعد تصفية الخصوم المنظمين طبعا، لم ترد هنالك فكرة إثارة التمايز الطبقي الذي ترفضه الإيديولوجية التوحيدية. وبما أن الأمر كذلك فآلة الدولة تبقى صالحة للاستعمال، إذ هي آلة قومية. في الإيديولوجية الماركسية تعتبر آلة الدولة قوة تخدم مصالح طبقة معينة وتكون سلاحا بيدها. فلا بد من كسر آلة الدولة ليتم تحطيم الطبقة السابقة. فلا تهم درجة تطور الدولة التي نثور عليها، ما دام الأمر تغييرا جذريا يقضي أن يعاد بناء الدولة على تركيب جديد، لتوضع في أيد جديدة.

في زماننا هذا، بعد ثورة لينين بما يقرب من سبعين عاما، تضخمت أهمية الدولة وفاق الاعتبار السياسي في الدولة الحديثة حتى أهمية الاقتصاد. فمعيار نجاح الدولة الحديثة نجاعتها ومقدرتها على ضبط الآليات المعقدة التي تتحكم في كل صغيرة وكبيرة من أمور حياة الناس. فالانقلابيون العصريون لا يطمحون إلا إلى الاستيلاء على آلة جاهزة همهم أن تبقى شغالة، بعد إبدال رؤساء الوزارات والشرطة والإدارة، ليشرفوا على التقنقراطيين الأكفاء ويوجهوا نشاط الأجهزة بتدرج إلى الوجهة الجديدة.

ما هكذا جذرية الثورة الماركسية - اللينينية. يشرح لينين أن تنظيم دكتاتورية البروليتارية لا يتم إلا بعنف سلطوي. المهمتان الرئيسيتان في نظره هما قمع مقاومة المستغلين، وقيادة الجماهير الكادحة في سعيها لترتيب الاقتصاد الاشتراكي. فهل يمكن إنجاز شيء من ذلك دون أن نبدأ بكسر آلة

الدولة، وإعدامها؟ هذه الآلة التي كانت البرجوازية بنتها على مقاساتها؟ يبقى سؤال وهو: ماذا نستبدل بالآلة المحطمة وكيف؟ ولهذا السؤال جوابه. لكن الأسبق أن نبرر لماذا يجب الكسر.

عرض لينين نقدا ماركسيا للدولة المركزية وكون مركزيتها سببا من أسباب الضغط على الطبقة الهامشية. قال ماركس: «كل الاضطرابات التاريخية إنما حسّنت آلة الدولة بدل أن تكسرها». ويلتحق نقد ماركس للدولة المركزية بنقد فلاسفة برجوازيين سبقوه، أهمهم طوكفيل. وهو نقد لا يزال يتوسط اليوم مقدمة مشاغل المفكرين في السياسة. وكان نقد ماركس لمركزية الدولة، ومتابعة لينين له في ذلك، يقدم بسخرية أمام وجه الدولة الشيوعية في روسيا مرآة لترى تشوه خلقتها.

يرى لينين في نقد ماركس للدولة المركزية، آلة الطغيان، فكرة مهمة جدا «فكل الثورات السابقة حَسَّنت آلة الدولة حيث كان يجب كسرها وتحطيمها. هذا الاستنتاج هو الأمر الرئيسي، الأساسي، في نظرية ماركس حول الدولة».

في عصرنا هذا لا تزداد الدولة الحديثة إلا ميلا إلى المركزية، وبالتالي لطبيعة الطغيان البيروقراطي المسلح أكثر فأكثر بالحاسوبات الإلكترونية، سواء في ذلك دولة روسيا ودولة أمريكا، والدول المصنعة، وتزيد على هذا التمركز دولنا المتخلفة آفات أخرى منها عدم الكفاية.

نطرح ونحن عابرون أسئلة ستجدها القومة الإسلامية أمامها يوما ما وفي كلها لنا درس. القومية الجادة انقلابية، الاشتراكية الجادة انقلابية. وعلى ساحة الديمقراطية لا بد للحركة الإسلامية وهي في الميدان أن تعلم ذلك

وتعلم أسبابه، خاصة منها سبب وجود نماذج تاريخية تكون الأفق الثقافي لأصحابنا. كذلك الأمر بالنسبة لآلة الدولة بعد وصول الإسلاميين للحكم. ما العمل يومئذ؟ تحسين الآلة وتطويرها؟ أم كسرها كما أوصت الماركسية وكما فعلت اللينينية؟ ولماذا؟ وكيف؟ ولم لا؟ قال ماركس في إحدى رسائله: «ستراني أؤكد أن الثورة في فرنسا يجب قبل كل شيء أن لا تحاول تمرير الآلة البيروقراطية والعسكرية في أيد أخرى، وهذا ما فعلته الثورات حتى الآن. بل يجب كسرها. هنا يكمن بالضبط الشرط المقدم لكل ثورة شعبية حقا». وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

برنامج الدولة الاشتراكية

الهدف الأول إذاً في روزنامة ماركس الثورية هو كسر آلة الدولة. وقد رأينا نقده البالغ للثورات التي سبقته، يَرى من أكبر عيوبها أنها بدل أن تكسر جهاز الدولة، أداة الطغيان، قَوَّتْهُ وَمَتَّنَتْ بنيانه. ولا يرمي ماركس إلى كسر الدولة لتعطيل طغيان قوة موجودة وإزالتها من الطريق، بل لديه من وراء ذلك فكرة هي من أعز أفكاره، بل هي تاج ذلك الصرح الفلسفي المشيد، ألا وهي فكرة الاستغناء عن الدولة بالمرة، في مجتمع تحرر من أصل البلاء: الطبقية. ونعود إن شاء الله إلى هذا قريبا. في انتظار انتصار الثورة وانعدام الضرورة إلى الدولة، ما العمل؟ يقول ماركس كما نقل عنه لينين في كتابه «الدولة والثورة» وهو آخر ما كتبه قبل دخوله المعركة الحاسمة، بل عاجلته الفرصة فاضطر لطبعه وإخراجه قبل إتمامه، يقول: «إن كَسْر آلة الدولة إنما تمليه مصالح العمال والفلاحين، فيجتمعون لتحقيق هذا الهدف عندما توضع أمامهم مهمة إسقاط هذا الجهاز الطفيلي وتعويضه بشيء جديد».

وبقي ماركس لا يدري ما يعوض الآلة المكسرة، ولا يستطيع أن يتصور بديلا بروليتاريا للجهاز البغيض، لأن من شأن العلماء أن يراقبوا الواقع لا أن يفتروا عليه من عند أنفسهم. حتى كانت حكومة كومونة باريس التي دامت شهرين كاملين، فلقف منها ماركس دروسا تاريخية مهمة، منها قضية البديل العمالي، الثوري لجهاز الدولة. قال ماركس في كتاب «الحرب الأهلية في فرنسا»: «إن الكومونة حققت لأول مرة في التاريخ المنعطف من الديمقراطية

البرجوازية إلى الديمقراطية البروليتارية، من ديمقراطية الظالمين إلى ديمقراطية المظلومين، من الدولة كقوة خاصة مرصودة لقهر طبقة معينة إلى قهر القاهرين بواسطة قوة عامة، قوة أغلبية الشعب من العمال والفلاحين».

وبما أن ماركس كان لا يتقدم أبدا بين يدي التاريخ، بل يكتفي بوصف أحداثه مستنتجا بتواضع التلميذ الدروس الحتمية، فإنه لم يقترح قط برنامجا إيجابيا، ولو مجملا، للدولة الاشتراكية بعد الثورة. وإنما اكتفى بتلخيص ما فعلته الكومونة القصيرة العمر واقترحته. ورغم أن الرفيق إنجلز لم يكن يعتبر الكومونة دولة، بل بداية لاضمحلال الدولة، فقد أشاد مع صاحبه ببرنامج اللادولة هذه وحبذاه.

قررت الكومونة حذف الجيش المحترف وتعويضه بقوى الشعب المسلح. وقد استولت فكرة «الشعب المسلح» هذه على فكر لينين فجعلها محور تفكيره ومحط نشاطه. ومن بعده لا تخطو ثورة خطوتها الأولى إلا ويكون تنظيم الملشيات شغلها الشاغل. القوة الفاعلة في الدولة، ذراعها الفاتكة، هي الجيش المنظم الذي يضمن الأمن والاستقرار. فلفترة مضطربة مثل فترات الثورة، لا يملأ الفراغ العسكري والفراغ النفسي إلا شعار مثل شعار «الشعب المسلح». وقد كان مما سهل وثبة ثورة أكتوبر تقهقر الجيش الروسي أمام الزحف الألماني الكاسح، ثم تبخره وهروب الأجناد. ومن عناصر هذه الأجناد الهاربة من الميدان صنع تروتسكي مؤسس الجيش الأحمر أول فرق هي الصورة الفعلية «للشعب المسلح» الذي حلم به ثوار باريس من قبل.

وقررت الكومونة حذف البيروقراطية وتعويضها بانتخاب الموظفين بالتصويت العام. انتخاب الموظفين وتسريحهم في كل وقت. كل الموظفين

يعمهم هذا الحكم، حتى القضاة الذين يجب أن يفقدوا حريتهم الظاهرة في النظام السابق. ويعني هذا رفض استقلال السلطة القضائية ذلك الاستقلال الذي يعد ركنا ركينا في الأنظمة الديمقراطية.

وقررت الكومونة خفض أجور كل أعضاء الدولة والإدارة من أعضاء المجلس إلى أسفل السلم وتسويتها بأجر العامل العادي، وإنه لحلم جميل هذا النزوع إلى المساواة. سل عن مصيره واقع طبقية «النومِنْكْلَتُورا» في روسيا برجنيف وكرباتشوف.

وقررت الاستغناء عن الامتيازات والعلاوات والمكافآت الخاصة للموظفين السامين، وذلك بالاستغناء الكلي عن هؤلاء الموظفين.

وقررت تجريد الشرطة من كل صلاحياتها السياسية لتصبح الشرطة إدارة عادية مثل سائر الإدارات.

وقررت حذف النظام البرلماني وتعويضه بمجلس غير برلماني، لكنه «فعال» يجمع في يده بين السلطتين التشريعية والتنفيذية.

ويبني لينين على هذا التراث التاريخي فيقترح، سائرا على خطى المعلم، لما بعد الثورة وكسر الآلة البرجوازية مرحلتين اثنتين: المرحلة السفلى التي يصف بعض ملامحها، والمرحلة العليا التي لا يستطيع هو ولا أحد من العقلاء أن يتقدم فيقحمها على التاريخ قبل أوانها. وإذن تبقى هذه المرحلة العليا لبناء الدولة أمرا معلقا. لم يجسر أحد بعد لينين أن يصفها فأحرى أن يعلن أن المجتمع الروسي وصل عتبتها. تلك المرحلة العليا هي المرحلة الشيوعية، مرحلة ذوبان الطبقية، مرحلة ذوبان الدولة، مرحلة جنة ماركس.

يخرج المجتمع إلى المرحلة السفلى من الاشتراكية من رحم الرأسمالية بعد «مخاض عسير وطويل». يخرج إليها وهو يحمل بين جنباته كما يقول ماركس «آثار جراح المجتمع القديم». يخرج فطيرا لا يمكن أن يتحرر من تقاليد الرأسمالية ولا أن يتصف بالنضج. من هنا فلا بد من الاعتماد مؤقتا على القانون البرجوازي وبعد ذهاب البورجوازية. وإذن فلا بد من نصب جهاز للدولة مؤقت، ويقدم ماركس حجة كبيرة للحكام الثوريين عندما يعلن أن الدولة والحرية نقيضان لا يجتمعان. ويشرح إنجلز هذه الحقيقة الناصعة التي تغسل عن وجه التاريخ الثوري كل وصمة بخنق الحريات فيقول: «ما دامت البروليتاريا تحتاج للدولة فلن تمنحها الدولة حرية، لكن تمنحها القدرة على قهر الخصوم. ويوم يمكن الحديث عن الحرية، فعندئذ لن يبقى للدولة وجود».

إضافة لينين الأصيلة إلى برنامج المرحلة السفلى تتلخص في فكرتين: الإحصاء والمراقبة. لم يستعمل كلمة «تخطيط»، لكنه فصل عمليتي الإحصاء والمراقبة من قبل الدولة تفصيلا لا يزال القانون الإيديولوجي للبيروقراطية هناك.

أوصى أن تفرض مراقبة شديدة الصرامة على الإنتاج والتوزيع، وعلى حساب العمل وحساب الاستهلاك. قال: «إن الأمر الجوهري في التنظيم، هو الإحصاء والمراقبة. لا بد منهما لتسيير المجتمع الشيوعي تسييرا جيدا في مرحلته الأولى». هنا يتحول كل المواطنين إلى مستخدمين مأجورين للدولة، دولة العمال المسلحين (...) وينبغي قبل كل شيء أن نتمكن من جعلهم يعملون نفس الحصة، محترمين لنفس حساب العمل، ينالون نفس الحصة من الأجر».

يرى لينين أن طرائق الإحصاء والمراقبة والمحاسبة قد بسطتها الرأسمالية تبسيطا يجعل في متناول الناس جميعا متابعة ما يجري في حقل الإنتاج والتوزيع. «فعندما يقوم جمهور الشعب نفسه بهذا الإحصاء في كل الميادين، عندما يقوم لمراقبة الرأسماليين (الذين يصبحون مجرد مستخدمين)، وعندما يقوم بمراقبة السادة المثقفين الذين بقوا محافظين على عادات رأسمالية، عندئذ تكون هذه المراقبة عامة حقا، شاملة، قومية، ولن يستطيع أحد أن يفلت منها ولن يكون المجتمع عندئذ إلا مكتبا كبيرا، ورشة كبيرة مع التساوي في العمل والأجر».

نشير هنا إلى أن ماركس نفى إمكان اجتماع الدولة والحرية، هذه العقيدة هي مضمون الدولة الشيوعية السياسي. أما شكلها فنجده في عموم «المراقبة» وقوميتها كما علم لينين، فمن يزعم أن الدولة البوليسية الستالينية لا أصالة لها؟!

اضمحلال الدولة

تنفرد الماركسية من بين سائر الإيديولوجيات بالتفاؤل المفرط فيما يخص الطبقة المختارة البروليتارية. وتتنبأ لها، عندما تتحرر، بأنها ستحرر المجتمع البشري من كل ظلم وإلى الأبد، وبأنها سترتفع بالنظام الاجتماعي إلى مرتبة لا تقول إنها أخلاقية، لكنها مرتبة رفيعة في سلم التطور الجدلي، يصبح معها وجود الدولة أمرا غير لازم بالمرة. إذا علمنا أن ماركس عاش في قرن كان للفوضويين أثناءه نفوذ فلسفي وسياسي كبير، سهل علينا أن نعرف مصدر التأثير الذي جر فيلسوف الصرامة العلمية ليدخل في حسابه أيضا الفكرة الفوضوية. والفوضوية يدور خطابها وحركتها الإرهابية حول وجود الدولة ومحاولة إسقاطها باعتبار أن الدولة هي رأس الطغيان، وأن البشر في سعادة يوم تسقط الدولة لتخلفها صيغة ما من صيغ الاشتراكية. وقد كان لماركس ولأجيال الاشتراكيين من عصره وحتى عصر لينين مساجلات زاد من أهميتها جرأة الفوضويين وأعمالهم الإرهابية. ويكفي ذكر اسم باكونين ذي الصدى الواسع.

فإذن أدمج ماركس ومدرسته من بعده هذا المطلب الحالم، مطلب إعدام الدولة من الوجود، في المذهب، وربط تحقيقه بنجاح الثورة البروليتارية. ووقوفنا برهة مع هذا الربط الهوائي ومع الصنعة الفلسفية التي حاكها الماركسيون في الموضوع يمكننا من زيادة التعرف على نظرية الدولة عندهم، وهي نظرية تملأ الساحة في علم السياسة لا غنى لنا عن نقدها. وهي في حد ذاتها

نقد جذري لنظرية الدولة اللبرالية، فالحديث في هذا الموضوع يبسط أمامنا أشكال التنظيمات السياسية الجاهلية المعاصرة بسطا يشف عن مضامينها الواقعية ومطالبها الإيديولوجية. وبما أن شكل نظام الدولة الإسلامية مفتوح في تفاصيله، فاستعراض الفلسفات الجاهلية، وتصفح تجاربها التاريخية، يتيح لنا استفسار الإمكانات أمامنا لبلوغ الأهداف الإسلامية، تلك الإمكانات التي تدخلنا في عداد البشر، نتعلم، ونخطئ، ونصيب. من وراء سعينا تأييد الله المرجو، لكن الخطأ في بناء الدولة، وفهم الطبائع البشرية، وفهم الضرورات التنظيمية والإدارية التي لا يعوضها أي عامل طبقي موهوم، ولا أية فضيلة اجتماعية مزعومة، خطأ قاتل. وتأمْلْ مصير الوهم الماركسي فيما يخص اضمحلال الدولة ترَ مثالا لانقلاب الواقع على الأماني الفلسفية، وانتقام الضرورة من التفاؤل الأعمى.

يعتبر إنجلز أن وجود الدولة في المجتمع هو «إقرار من المجتمع بأن التناقضات الطبقية التي يتخبط فيها لا تجد حلا خارج الدولة، وأن العداوات العميقة فيه تهدد استمراره. لذلك يضطر المجتمع لإقامة الدولة لكي لا تأكل الطبقات المتصارعة بعضها بعضا، ولكي لا يأكل ذلك الصراع المجتمع بأسره. فقوة الدولة تنظم الصراع وتطوقه في حدود معقولة». ويرى الرفيق أن الدولة البورجوازية لا تكفي بتخفيف نتائج الصراع، لكنها تمثل «القوة الخاصة» التي تثبت سيادة طبقة على طبقة في أشكال قانونية. فمتى زال الصراع الطبقي زالت بالضرورة مبررات وجود الدولة. وما الدولة في آخر تحليل إلا انعكاس فوقي للوجود الاجتماعي.

ويحلل لينين في كتاب «الدولة والثورة» مقالات إنجلز في رده على دُهْرِينْجْ في الموضوع بكثير من الإلحاح والتكرار. بيَّن إنجلز أنه متى امتلكت البروليتاريا وسائل الإنتاج باسم المجتمع، وبالتالي متى زال التناقض بين وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج وهو محرك التاريخ، فإن تدخل الدولة في سير المجتمع «يصبح أمرا غير لازم في ميدان من ميادين النشاط الاجتماعي»، وبما أن العداء الطبقي لا يبقى له وجود عندئذ، كما لا يبقى وجود لطبقة يقع عليها القهر، فإن الدولة «ينام نشاطها من تلقاء نفسه»، «وتعقب إرادة الأشياء إرادة الناس». لا حاجة لنقض الدولة عندئذ، بل هي تنتقض تلقائيا عندما لا يصبح لها مهمة في مسلسل الإنتاج.

ويكمل لينين التعليل فيشرح كيف يضطلع الشعب المسلح «بمأمورية الإحصاء والمراقبة فيهيئ بذلك الطريق للاستغناء عن الدولة. فإنه عندما يصبح التخفي من مراقبة الشعب الموجود في كل مكان، اليقظ يحصي الأنفاس على الناس، أمرا شاقا جدا، فإن محاولات الاستخفاء من المراقبة العامة تصبح نادرة، خاصة وأن «الشعب المسلح» لا يعرف المزاح، فهو يعاقب كل مخالفة عقاباً شديداً وسريعاً، ليس «الشعب المسلح» مثل هؤلاء المثقفين العاطفيين!

ومع العادة يلتزم الناس جميعا بالضوابط والقواعد البسيطة الجوهرية لحياة كل مجتمع. العادة عندما تتمكن تقود الناس إلى الطاعة من غير حاجة إلى عنف الدولة وتسلطها.

هنا لمس لينين عقدة الأمر كله: الطاعة بلا إكراه. وإنها لمثالية يستغرب أن تولد في فكر جدلي لا يرى غير الصراع دينا. عندما كان يتحدث عن مراقبة «الشعب المسلح» وإحصائه الأنفاس، وعقابه الشديد السريع للمخالف كان

داخل منطقه. لكن عندما أعطى للعادة تلك الفضيلة، وعندما اعترف بوجود ضوابط «جوهرية» لازمة لكل مجتمع، وعندما بشر بطاعة تُمنَح بلا إكراه وبلا عنف، فقد عَبَر من محيطه إلى محيط غيره.

لو ركز مفكر أمله في إصلاح المجتمع ليستغني المجتمع باليقظة العامة عن كثير من الإكراه وأناط القضية بالضمير الأخلاقي صراحة لقلنا هذا كلام. ولو تحدث متحدث عن الالتزام الخلقي أو الديني بالطاعة وفاء بعقد بين الحاكم والمحكوم لاستمعنا. لكن الماركسيين في هذه النقطة يسبحون في خضم غامض. وكان هتلر أكثر منطقية وصراحة عندما أرجع القضية إلى التربية القطيعية والطاعة القطيعية لقائد فرد مقدس.

نقطة الطاعة، والالتزام المشروط بها، والوفاء بمقتضيات عقد البيعة بين الحاكم والمحكوم، هي النقطة التي تدور عليها حياة النظام السياسي الإسلامي. كيف جاء ذكر الطاعة الطوعية في كلام الماركسيين؟ وكيف تعذرت الطاعة في ذلك المجتمع الثوري حين تضخمت الدولة عوض أن تضمحل، وحتى صار الإكراه والعنف والسفك الستاليني الحل الوحيد لمشكلة السلطة والدولة؟

كان لينين في وصيته المشهورة التي كتبها قبل موته وبعد تجربة ست سنوات في إدارة الثورة ودولتها يبدي دهشته وعجبه من تطور الدولة في غير الاتجاه الذي حسبه.

دعنا نستمع إلى هذيانه المثالي الذي يفسر أخطاءه. كان يبشر أنه سيأتي زمن على المجتمع بعد الثورة يتعود الناس فيه احترام الضوابط الأساسية لسير المجتمع، ويصير عملهم منتجا إلى درجة أنهم سيبذلون كل جهدهم للإنتاج دون أن يقفوا مع الحسابات الأنانية، ويزدهر النظام الاقتصادي الاشتراكي

ازدهارا لا حدود له بعد انهيار الرأسمالية. كل ذلك نتائج للثورة لا شك فيها ولا ريب.

إن في النظرية الماركسية اللينينية ثغرات تملأها الفلسفة بما لدى ماركس وشراحه من حذق ومهارة. ومن أكبر الثغرات غياب تصور متماسك لما بعد الثورة، فعوضوا البرنامج بالتفاؤل الطليق وبالأحلام المجنحة.

جنة ماركس

يؤمن الماركسيون بالتطور الجدلي المحتوم، فكما خرجت البورجوازية من الإقطاعية لا بد أن يخرج من النظام الرأسمالي نظام اشتراكي. بيد أن ماركس الحذِر في استنتاجاته التاريخية للمراحل الماضية خطا خطوة واسعة في فضاء التنبؤ الصرف عندما أخذ في وصف الملامح الرئيسية المرتقبة «اللازمة» للمجتمع الاشتراكي في مرحلته العليا.

قال في صفحة مشهورة من كتابه: «نقد برنامج كوتاوارفورت»: «عندما ينقرض استعباد الأفراد وتبعيتهم لتوزيع العمل، وعندما ينقرض معه التناقض العدائي بين العمل الفكري والعمل اليدوي (...) عندما تنمو نموا متعددا قدرات الفرد، وتنمو الطاقات الإنتاجية، وتتفجر كل منابع الثورة الجماعية بغزارة، عندئذ فقط يمكن تجاوز الأفق الضيق للقانون البورجوازي تجاوزا كليا، ويمكن للمجتمع أن يكتب على راياته هذه العبارة: من كل حسب طاقته، وإلى كل حسب حاجته».

في العبارات الأخيرة يشير ماركس بالنقد للظلم البورجوازي الرئيسي وهو التملك الفردي لوسائل الإنتاج، وللظلم الثانوي الذي تقننه قوانين البورجوازية وهو التوزيع السيئ لأشياء الاستهلاك، حيث يأخذ كلٌّ ما يناسب العمل الذي أنجزه لا ما يناسب حاجته وحاجات عائلته.

يعتبر ماركس توزيع المنتجات الاقتصادية بهذا الميزان ظلما اجتماعيا صارخا، لأن الناس ليسوا سواء، فهذا قوي وهذا ضعيف، وهذا ذو عائلة كبيرة

بخلاف ذاك. فإن وُزِّع عليهم بمقادير متساوية فذاك عين الظلم. لذلك يجب أن يكون قانون التوزيع حسب رأي ماركس مبنيا لا على المساواة، بل على عدم المساواة.

وهذا ما بشر به في صفحته المشهورة «عندما يكون تجاوز الأفق الضيق للقانون البورجوازي تجاوزا كليا».

ويزيد لينين مذهب معلمه في الموضوع شرحا، فيبين أن الناس في المرحلة السفلى للاشتراكية سيتعودون على احترام القواعد والضوابط الضرورية للحياة الاجتماعية، وهكذا «فعندما لا يكون هناك استغلال، وعندما لا يكون هناك ما يبعث على الغضب أو على الاحتجاج والرفض، أو يدعو إلى الردع»، تنفتح عندئذ الأبواب مشرعة ليمر المجتمع من المرحلة السفلى من الاشتراكية إلى مرحلة انقراض الدولة، وذلك حين يضمحل القانون الضيق البورجوازي، ويحق للمجتمع أن يكتب على راياته تلك العبارة التي هي شعار الجنة الماركسية، جنة الوفرة والإنتاج الغزير، والتوزيع حسب الحاجات.

إن الجدلية هي الضامن لكي تنضج المرحلة العليا في أحشاء المرحلة السفلى من الاشتراكية نضجا اقتصاديا وسياسيا، فمن الناحية الاقتصادية تؤدي الملكية العامة إلى الازدهار، ومن الناحية السياسية يؤدي الإحصاء، وتؤدي المراقبة العامة، إلى الطاعة العفوية التي تصبح عادة، وكأنها انعكاس للضوابط الضرورية في سلوك الناس.

مضى على وعود ماركس أزيد من قرن، وعلى ثورة لينين سبعون عاما، فبين أيدينا تجربة ملموسة بالغة الأهمية، متشعبة المناحي، غنية بالأخطاء

والتعديلات والانحرافات والنزعات. وهي تجربة فَتَنَت العصر زمانا. حتى انجلى الأفق الثوري عن دولة عظمى لها المقام الحاسم في مصير العالم. فالمراقب من أعلى ومن بعيد، والشاب المناضل المليء بالأحلام، يحكم بأن الدولة العظمى إنما هي النتيجة الحتمية والثمرة المرضية للمذهب العلمي العظيم. ولا يهتم مَن هذا موقفه بالنظر الفكري في القيم، يكفيه أن الماركسية كانت الفلسفة التي قفزت بروسيا المتخلفة منذ عقود قليلة من مؤخرة قافلة الحضارة إلى الصف الأول. ويكفي المناضل أن يكون حامي ظهره دولة معها سلاح بلا حدود، تؤيد أصدقاءها في المحافل الدولية، وتقدم النصح الدبلوماسي، وتدرب الفرق الثورية، وتحمي من طغيان الإمبريالية عدوة الإنسان.

أما الناقد الإنساني للجاهلية بمذاهبها جميعا، فإنه يتتبع منطق العنف والإكراه من وراء الإيديولوجية وتوليداتها الجدلية، هناك اعتراف مكتوب معروف بأن الحرية والدولة نقيضان لا يجتمعان. هذا كتبه إنجلز في رسالة إلى بيبل. هناك تخطيط للمراقبة العامة وإحصاء الأشياء والأنفاس، هناك فوق كل شيء الحرب المبدئية بين الطبقات، ومشروع القضاء المبرم على العدو الطبقي للبروليتاريا. فلا غرو أن تتمخض التجربة الماركسية المتعددة عن الدولة المركزية أقصى ما كانت الدولة مركزية، وأن يكون النظام البوليسي هو الصيغة الفعلية الممكنة لمراقبة «الشعب المسلح» نفسه بنفسه، وأن تكون تصفية العدو الطبقي صناعة دموية لها أجهزتها وتقنياتها. ولا غرو أن ينتج كل ذلك دولة متماسكة بالقهر الطبقي الذي فرضه الحزب الواحد، قوية لوحدة القرار وإعدام الرأي المعارض المعرقل. وما دون هذا من الثغرات في الفعالية

الاقتصادية، وصلاحية التخطيط الاقتصادي أو عدم صلاحية، أمور ثانوية في مستوى النقد الإسلامي لحضارة القسر والصراع، قابلة للأخذ والرد.

ما لبثت الثورة اللينينية أن وجدت نفسها مضطرة لإعادة تركيب آلة الدولة وتقوية جهاز الجيش وجيش البيروقراطية. فبعد أربع سنوات من ابتداء الثورة أخذ لينين ينتقد «الانحراف البيروقراطي». ومع ستالين أخذت آلة الدولة تقوى، وأخذ الجيش المنظم والشرطة السياسية يحلان محل الوهم اللينيني في «الشعب المسلح». وأخذ الإكراه المكشوف البسيط يفرض الطاعة العمياء. ما لبث ستالين أن رفع شعار «الاشتراكية في بلد واحد» بديلا عن شعارات الاشتراكية العالمية و«الثورة المستمرة» التي كان ينادي بها تروتسكي غريم ستالين.

تمكن ستالين من آلة الحزب التي صنعها لينين، وبها حرك الدولة في اتجاه دكتاتورية شخصية قيصرية ما كان معها وجود إلا وجود اللغو والهذر الإيديولوجي في السوفيات.

وتبخرت كل أحلام التوزيع المتساوي، فحظيت طوائف موظفي الجيش، وحاشية كاتب الحزب (أي تواضع في الأسماء!)، والأجهزة الخاصة من الشرطات المتوازية يراقب بعضها بعضا، ومن سجون ومعتقلات، بالمعاملة والأجور المرتفعة والمساكن الفسيحة، والسيارات الخاصة، والحاجات تقضى. وها هو جرباتشوف نفسه ينتقد اليوم علانية هذه الميزات ويفضحها.

وفي وقت مبكر من حكم ستالين انبعث رفاق الحزب، تروتسكي وأنصاره، والنقابيون، والاشتراكيون من غير الحزب البلشفي، والمثقفون، والساخطون، يصرخون بأن الثورة سقطت ضحية خيانة. وكان حظ هؤلاء جميعا التصفية.

ليس من شأن الناقد الإسلامي أن ينظر فيما إذا كان خط ستالين هو الأقرب إلى الماركسية أم خط معارضيه. هناك منطق تقسيم المجتمع إلى طبقتين، هناك إستراتيجية وتقنية للحرب الطبقية كعلاج للوضع الطبقي، فهل هناك خط أنسب لطحن الخصم الطبقي من خط ستالين؟

وفي سنة 1975 دخل الثوار الشيوعيون بْنُومْ بِّنَهْ عاصمة الكامبودج، وساقوا الشعب جميعا خارج المدن، وقتلوا ثلاثة ملايين من الخلق، ما يقرب من نصف السكان، مباشرة ضج العالم من هذه الوحشية، لكننا لا نرى في تلك الفعلة الشنعاء إلا أسلوبا، مثل أسلوب ستالين، لتطبيق الجدلية العتيدة.

«لا يعجبني وجهك اليوم»

حكى خروتشوف عن سلفه ستالين أن الجبار الروسي كان كلما قال لأحد كبار الدولة هذه العبارة علم أفراد الحاشية المطلعون على أطوار صاحبهم أن أيام الوجه الذي لم يعد يعجب محسوبة. أفكان المزاج الستاليني هو السبب في المسار الإرهابي الذي سارت عليه الدولة الروسية الثورية، أم أن هناك ما لا يفسره المزاج؟ لو كان ستالين واحدا من الحكام المستبدين الذين عبروا تاريخ العالم ولا زالوا يعبرونه لما استحق كل هذا الجدل حول شخصيته. لكنه أخذ مقاليد الثورة العالمية التي كانت أمل شعوب العالم في وقت مبكر من أيام ميلادها، ولبث في الحكم ما يناهز ثلاثين سنة حتى أعطى للدولة العظمى التي تتحكم اليوم في مصير البشرية إلى جانب شقيقتها الرأسمالية أسلوبا ثابتا للحكم، وتقاليد لا يمكن أن تلغى بمجرد موقف خروتشوف في مؤتمر الحزب البلشفي العشرين ليعلن «أخطاء» ستالين ويتبرأ منها. ولا بموقف جرباتشوف اليوم ينتقد بلا هوادة عهد برجنيف.

نرجع إلى ما قبل ستالين قليلا. منذ الشهور الأولى لنجاح ثورة أكتوبر فرض لينين على رجال دولته الجديدة «الإجراءات الأكثر عزما والأكثر صرامة لرفع مستوى الانضباط». في شهر دجنبر من سنة 1917 اقترح وسائل القمع التالية لسحق العدو الطبقي: «انتزاع كل الممتلكات (...) والإيداع في السجن، والإرسال إلى جبهات القتال وإلى الأشغال الشاقة، في حق كل المخالفين للقانون».

كان يعتبر أن «سحق الأغلبية من عبيد الأمس للأقلية المستغلة مهمة غاية في السهولة والبساطة والطبيعية نسبيا، بحيث تخسر فيها الإنسانية دماء أقل (...) وتكلف الإنسانية كلفة أقل»[1].

يقولون سولجنتسين، وهو الكاتب الروسي الأشهر: «في حسابات البروفسور الهارب من روسيا كوركانوف المتخصص في الإحصائيات، كلف هذا السحق «السهل نسبيا» منذ بدء ثورة أكتوبر ستة وستين مليون إنسان. وبالطبع لا نستطيع ضمان صحة هذا الرقم، لكن ليس لدينا أي رقم غيره رسمي».

وينقل نفس الكاتب[2] أن آخر ما كتبه لينين وهو في مرض موته رسالته إلى كورسكي الذي كان يُعدُّ مدونة للقانون الثوري قوله له: «يجب أن لا ترفع المحكمة الإرهاب. إن من يعد بذلك إنما يخطئ في نفسه أو يسقط الآخرين في الخطأ، يجب أن يبرر الإرهاب، وأن تبين مشروعيته على صعيد المبادئ، بوضوح بلا تحريف ولا تزويق» سواء احتفظنا برقم الستة والستين مليون ضحية، أو نزلنا إلى رقم عشرين مليونا الأكثر تداولا، لغياب أرقام رسمية كما يَسْخَرُ سولجنتسين، فالخليق باعتبارنا الأصل الفكري والمنهجية في الحكم. وهذا هو لينين شعاره «الإرهاب أداة إقناع» وتعليماته الأخيرة لواضع القانون الثوري أن يتخذ الإرهاب أساسا واضحا للنظام، «بلا تحريف ولا تزويق». وما الجدلية الفلسفية إلا وعاء فكري لاستيعاب مبدإ سحق العدو الطبقي وتبريره «وتبين مشروعيته» إذا كان الأمر كذلك فما حظ مزاج ستالين في القضية؟

(1) فيما مضى من فقرات لم نشر إلى مصادر النصوص لأنها معروفة. هنا نصوص أنقلها عن كتاب سولجنتسين: L'Archipel du Goualg, Tome 2, p 9-10, Editions Seuil Paris : 1974

(2) نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص: 255.

نرجع إلى شهادة سولجنتسين نستمع إلى شاهد من أهلها. كان هذا الذي أصبح كاتبا يحتفل به الغرب أيما احتفال لحاجة الصراع بين الرأسمالية وغريمتها ويرفعه ويقلده جائزة نوبل للآداب ضابطا في الحرب العالمية الثانية، ضبطوا معه رسائل ينتقد فيها بعض سياسات ستالين، وأمضى في المعتقلات ثمان سنوات وصف فظائعها. قال عن أثر ستالين في بناء الدولة الروسية[1]: «فكرت طويلا، قبل سنوات سجني بكثير وأثناءها، أن ستالين فرض على مسار تطور الدولة السوفياتية وجهة حاسمة. لكن ها إن ستالين مات بهدوء فهل يستطيع أحد أن يقول إن السفينة غيرت وجهتها؟ إن أثر ستالين الشخصي على الأحداث يتلخص في شيء ما حزين وبليد، يتلخص في نزوات جبار صغير، يتلخص في تعظيمه لنفسه. أما فيما عدا ذلك، فإنه لم يزد على أن وضع رجله بالضبط في المخطط الذي وجده مرسوما».

هذا المخطط المرسوم حاولنا في الفقرات الماضية أن نحضر ميلاده وتطوره، إنه الجدلية منهجا والعنف الانقلابي سياسة، وسحق العدو الطبقي هدفا. أما أسلوب الحكم فهو الإحصاء والمراقبة، أو بكلمات أوضح: التجسس والحكم البوليسي سياسة وإدارة، والتخطيط اقتصادا. وكم كان ستالين وفيا لتعليم رفيقه الأكبر فيما يخص المراقبة! حتى إن سوء الظن أصبح طبعا له قارا. وإذا كان رئيس الدولة لا يثق بأحد، ويتجسس على كل أحد، ولا يأمنه على نفسه أحد أن يفاجئه بأن وجهه اليوم لا يعجبه، فقد بلغ الإرهاب قمته. الشك الشك! هذه هي البضاعة النفسية الرائجة في مجتمعات القهر المنظم.

(1) نفس المصدر، ص: 430.

نستمع مرة أخرى لشهادة سولجنتسين، وهو يصف نفسية «الجبار الصغير» المصاب بجنون العظمة، لكن المنطقي رغم ذلك مع منهجيته الثورية. كتب سولجنتسين ما يلي[1]: «كان الشك في الناس السمة الأساسية في شخصية يوسيف دجو كاشفيلي (ستالين). كان الشك هو وجهة نظره إلى العالم».

«ما وثق بأمه، لا ولا بهذا الإله الذي لبث إحدى عشرة سنة يطأطئ رأسه أمامه نحو بلاط المدرسة الكنسية (كان ستالين على وشك أن يتخرج قسا عندما التحق بالحزب)» لم يثق بعد ذلك برفاقه في الحزب، وبالأخص أولئك الذين يحسنون الكلام. لم يثق برفاقه في المنفى. لم يكن يعطي ثقته للفلاحين كي يبذروا الحب ويجمعوا الغلة إن لم يكونوا مجبرين على ذلك ولم تكن أشغالهم مراقبة. لم يكن يثق بأن العمال سيشتغلون إن لم تحدد لهم أرقام للإنتاج. لم يكن يثق بأن المتعلمين (الإنتلجنسيا) سيبنون ولا يخربون. لم يكن يثق بالجنود ولا بالجنرالات كي يقاتلوا دون تهديد فرق المراقبة، ودون تعيين فيالق للتقدم المتهور نحو الموت المحقق. لم يكن يثق بالمقربين الحميمين منه. لم يكن يثق بزوجاته ولا بخليلاته. لم يكن يثق بأطفاله. وكان دائما يكتشف أنه على حق في عدم ثقته بالناس».

أرأيت كيف تبدو لنا سطحية المراقبة العامة التي أوصى بها لينين! لقد رفع الرفيق دجو غاشفيلي المراقبة إلى مرتبة فن، وأعطاها بعدها العمودي النفسي، وعمم باعثها وهو الشك المنهجي. ولئن كان ماركس يعيب الثورات التي سبقته بأن كلا منها يقوي آلة الدولة ويحسنها، فإن هذا العيب لا يلحق وريثه ستالين، لأن هذا العبقري قفز بالدولة «قفزة نوعية» كما تقضي بذلك الجدلية عندما تكون في لحظات مجدها.

(1) «Le premier cercle» p. 165, Editions Robert Laffont 1968.

وبدأت ثمار المنهجية الشكية يحين قطافها «بدأ نفس البلاشفة الذين صنعوا الثورة كلها ولم يعيشوا إلا من أجلها يختفون بالعشرات والمئات. كان بعضهم لا ينتظرون حتى يعتقلون، فيبتلعون السم في بيوتهم. وآخرون يشنقون أنفسهم في بيوتهم الريفية، لكن غالبيتهم كانوا يستسلمون للاعتقال. وكانوا يمثلون أمام المحكمة. وبكيفية عجيبة غير مفهومة كانوا يعترفون بالتهم الموجهة إليهم، وكانوا يجرمون أنفسهم على رؤوس الأشهاد، وينسبون إلى أنفسهم كل الجرائم، ويعترفون بأنهم تعاملوا مع كل منظمات التجسس الأجنبية في العالم».

يسخر الكاتب عندما يتحدث عن «الكيفية العجيبة» التي تجعل الناس يعترفون بما لم يفعلوه. وهو الذي درس عن كثب وسائل التعذيب في مخافر «جنة ماركس».

الرعب الثوري

ترى كيف يطبق القانون الذي يراد له ومنه أن يكون أداة إقناع إرهابية، وكيف تكون نفسية مجتمع يسوده الشك والخوف؟

إذا سمعت من الماركسيين من يُدين «النظام السوفياتي» و«الاستبداد الستاليني» فاعلم أنه إنما يفعل ذلك محاولة أن يبرئ المذهب والثورة الناتجة عنه من كل عيب ليلصق العيب كله بانحراف ستالين ومزاجية ستالين. والذي يهمنا هو أن نطلع على تاريخ الإرهاب الطبقي، وهو من صلب المذهب، وعلى التركيبة النفسية والاجتماعية التي ترتب بكيفية دائمة على ممارسة هذا النوع من الحكم لعقود طويلة من الزمن.

مرة أخرى نستمع لشاهد من أهلها هو سولجنتسين، وليس هذا الكاتب الموهوب إلا وجها من الوجوه العديدة التي خرقت إلينا الستار الحديدي، وصوتا من الأصوات الكثيرة التي تصرخ منذ سبعين سنة، يصلنا بعضها.

من نقط ضعف الاتحاد السوفياتي أنه مضطر لخنق هذه الأصوات وتغطيتها بالدعاية الرسمية، بينما خصومه في غرب الجاهلية مكشوفة مجتمعاتهم لا يكاد أحد يلتفت لعاصمة الإرهاب الديمقراطي نيويورك لأن أخبارها أصبحت يومية مملة. آخر أخبار المجتمع الديمقراطي الأمريكي أن الأغنياء هناك يحاولون تنظيم شرطات خاصة بعد عجز شرطة الدولة، لينام في الأمن من يدفع، ولتسلم شوارع الأغنياء من السطو.

ماذا في عالم رسم له إنجلز مذهب أن «لا تجتمع الحرية والدولة»؟ من هناك لا تصلنا أخبار عن أية انفجارات ولا عن أية تنظيمات إرهابية، هناك تحتكر الدولة العنف والإرهاب. لنقرأ مع سولجنتسين دراسته المؤلمة. قال[1]: «في سنة 1934، في الاجتماع العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي واللجنة المركزية لمراقبة الحزب، فكر المرشد الكبير (ستالين) بلا شك في إعداد الأشخاص الذين سيضطر قريبا «لإبعادهم عن الميدان»، فأعلن أن اضمحلال الدولة الذي كان في البرنامج منذ 1920 سيتم عن طريق تقوية جهاز الدولة إلى الدرجة القصوى. كانت المسألة مفاجئة، لأنها كانت عبقرية، إلى درجة أن فهمها لم يكن في متناول أي عقل صغير. لكن فشنسكي (وكيل الدولة) كان يمارس مهمته التنفيذية، فالتقط بسرعة الأمر (وكتب في مقدمة قوانين السجن) «وتبعا لذلك -أي لأمر ستالين- يلزم التركيز الأقصى لمؤسسات إعادة التربية بالعمل يعني هذا الدخول إلى الاشتراكية عن طريق التقوية القصوى للسجون». ليس هذا الكلام نكتة في مجلة هزلية، لا بل هو كلام وكيل الدولة العام للاتحاد السوفياتي.

وهكذا أنشئت «مؤسسات إعادة التربية بالعمل»، وعمت كل أرض الاتحاد، وغطت كل الأقاليم، حتى أصبحت دولة وسط دولة. دراسات سولجنتسين وأعماله الروائية موضوعها الوحيد وصف ذلك العالم الرهيب الذي سماه «أرخبيل الجولاج» يشبهه بمجموعة منتشرة من الجزر. وكلمة جولاج بالجيم المصرية، يعني: «الإدارة المركزية للمعتقلات». قال[2] عن ذلك العالم، وهذه من ألين جمله في وصفه: «في ذلك العالم المخيف، كل

(1) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 95.

(2) المصدر السابق، ص 221 وما بعدها.

واحد يَعْرُقُ عظام من يقدر عليه، حياة الإنسان وضميره يباعان كأنهما قطعة خبز لم ينضج». فمن كان قاطنو هذا العالم، وأين «المعتقلون السياسيون» «الذين كانوا مفخرة السجون على مر التاريخ»؟

ثم يذكر كيف محيت من قانون الثورة أية إشارة إلى صفة الاعتقال السياسي، وطبق على «أعداء الثورة» ثم أصبح الاسم «أعداء الشعب» ليكون أبلغ، فصل 58 من القانون. كان المعتقلون بمقتضى هذا الفصل يعاملون في معتقلات الموت بالإهانة التامة ويكلفون أشق الأعمال، ويوضعون تحت رحمة المجرمين الذين يعتبرون «قريبين طبقيا» من البروليتاريا الحاكمة. هناك أمثلة من التهم التي تجعل المرء عدوا طبقيا تهدد حريته الثورة، ويتنافى بقاؤه مع حقائق «دكتاتورية البروليتاريا». وأستسمح القارئ عذرا إن أطلت في سرد النماذج، لأن الإيديولوجية كلام له منطق، وهنا نحن مع الإنسان وآلامه، والظلم الفظيع المسلط عليه، والإرهاب الأسود الذي يخيف أيامه ولياليه. وإن وقوفنا مع هذه النماذج من البهتان والاستهانة بالإنسان ما هي وقفة مؤرخ يستعيد الذكريات، لكنها وقفة اعتبار نرى فيها كيف يتجسم العنف المنهجي المذهبي الإيديولوجي في حياة المجتمع، وكيف تقطع لحمة الأسرة، وكيف يسود الطغيان، وكيف يستولي الرعب على الناس. وقفتنا اعتبار بالجاهلية وفلسفتها الصراعية وممارستها الإرهابية، لنتعلم بالمقابلة كيف تصون القومة الإسلامية الإنسان، وكيف تحقن الدماء، وكيف تجعل الثقة عمادها بدل الشك، والرحمة بدل الكراهية، والرفق بدل العنف.

«خياط وضع في يده إبرته، فرشقها في قطعة جريدة ملصقة بالحائط لكيلا تضيع. اتفق أن شكت الإبرة عين «كاجانوفتش» رأى ذلك زبون: فصل 58، عشر سنوات، بتهمة الإرهاب».

«بائعة في متجر تلقت بضاعة فلم تجد ما تسجلها عليه إلا ورقة من صحيفة، وهكذا كتبت رقم قطع الصابون على جبهة الرفيق ستالين: فصل 58، عشر سنوات».

«قائد جرار في محطة آليات ببلدة زنامنسك وضع في حذائه الحقير ليدفئه منشورا يتعلق بانتخابات السوفيات الأعلى. افتقدت عاملة مناشيرها فإذا واحد منها ضاع. علمت من أخذه: دعاية مضادة للثورة، عشر سنوات».

«مدير منتدى قروي ذهب مع الحارس ليشتري تمثالا نصفيا للرفيق ستالين، كان التمثال ثقيلا يلزم وضعه على ناقلة ليجره اثنان، لكن شرف المدير لا يتناسب مع ذلك. أمر الحارس بأن يحمله، وذهب هو. حاول الحارس الشيخ حمل التمثال فلم يقدر على حمله إلا بعد أن وضع حبلا على عنق ستالين، ومشى به في شوارع القرية. حالة واضحة لا شك فيها: فصل 58 فقرة 8، إرهاب، عشر سنوات».

«بحار باع لإنجليزي «ولاعة»، مجرد جعبة فيها فتيل وحجر، اشتراها الإنجليزي بجنيه تذكارا لسفره: تهمة المس بسلطة الوطن، فصل 58، عشر سنوات».

«غضب راعي بقر، فسب بقرة عاصية قائلا: بئس بقرة الكلخوز! (الكلخوز هو المزرعة الجماعية التي خلفت المزارع الفردية): فصل 58، مدة من السجن».

«خادم أصم أبكم استحق هو أيضا مدة سجن بتهمة الدعاية ضد الثورة. كيف يمكن هذا! كان ينظف بلاط المنتدى (...) فوضع سترته وقبعته على تمثال لينين. أطل أحدهم فأبصره: فصل 58، عشر سنوات».

«تلميذ عمره 16 سنة من قبائل تشوفاش أخطأ في كتابة شعار بالروسية التي ليست لغته على الجريدة الحائطية. فصل 58، خمس سنوات».

«اعتقلت أرينا توتشكايا خطيبة ابن صوفرنشكي بعد رجوعها من الكنيسة. واتهمت بأنها كانت تدعو في الكنيسة بموت ستالين. ترى من سمع هذا الدعاء! إرهاب، خمس وعشرون سنة».

«اتهم ايكسندر بابيتش أنه «عمل ضد السلطة السوفياتية عام 1916 (!!) في إطار الجيش التركي». واتهم زيادة على ذلك بأنه كان ينوي أن يدفع للألمان سنة 1941 الباخرة كاسحة الثلوج صادكو التي كان سافر على ظهرها. حكم عليه بالإعدام ثم خفض الحكم إلى 25 سنة. والواقع أنه حارب الترك متطوعا في الجيش الروسي».

الأمثلة عديدة من أطرفها أن أحدهم أخذ عشر سنوات سجنا لأنه نظر إلى صورة الرفيق العبقري ستالين وابتسم. ماذا تخفي هذه الابتسامة الأثيمة؟ إنه عندما ترخص حياة الإنسان، ويعم الخوف ويكون التجسس وباء اجتماعيا، يحاول كل من الناس أن يخفف عن نفسه بإثقال كاهل الآخرين بالتهم المفتعلة أو المضخمة أو المخترعة. وإنه لمسلسل رهيب مسلسل العنف.

إعادة التربية بالعمل

الكلمتان نبيلتان: التربية، العمل. أما الواقع من وراء العنوان فهو الإفناء الاقتصادي لطبقة من المجتمع، ومع هذا الإفناء إشاعة الإرهاب، وهو وسيلة من وسائل الإقناع كما نعلم، في شعوب الاتحاد كلها، خاصة الشعوب المسلمة فيما وراء القوقاز والتركستان وصحاري الكرغيز. كان الإفناء اقتصاديا لأن المعتقل حسب الفصل 58 كان يحشر إلى معسكرات في الشمال حيت تنزل البرودة إلى ما تحت خمسين مائوية تحت الصفر، ويجوع تجويعا مريعا وتحرض عليه الإدارة السجناء المجرمين «الأقرباء الطبقيين» ليهينوه ويسوموه سوء العذاب، ويترك بلا ثياب ليشغل في تلك البرودة القاتلة في أسمال ممزقة وربما حافي القدمين، إلى آخر ما جاء في قاموس الفظاعات من فظيع، لكن الاعتبار الاقتصادي لا يغيب عن نظام عقدة قوامه الاقتصاد. فكان على المعتقلين أن ينتجوا، أن يشتغلوا ثلاث عشرة ساعة، سبع عشرة ساعة فى اليوم، فى بناء الطرق، وسكك الحديد، وشق القنوات في الصخر بلا آلة إلا الفأس، وقطع الأشجار وما أشبه. كل ذلك والمآوي مساء محتشدات يكدس فيها البشر تكديسا، وتفشو الأمراض، ولا عناية طبية.

يفتخر كاتبنا سولجنسين بأن لا أحد يستطيع أن يتهم النظام الستاليني بارتكاب جريمة المحارق البشرية كما فعل نظام هتلر. لكن إنتاج البؤس والمرض والألم والموت على أبشع صوره كان عاليا.

وفى هذه الظروف يتم ترذيل الإنسان وإنزاله إلى مراتب الحيوان. من المدارس تتخرج النماذج الأصلح للبقاء، بعد أن استطاعت الحفاظ على

الحياة في ذلك الجحيم حتى النهاية، لترجع إلى المجتمع حاملة جراثيم الرذيلة الحيوانية لتطعم الجراثيم التي بثها الإرهاب المنهجي في المجتمع كافة خارج المعتقلات.

قال كاتبنا[1]: «في معتقلاتنا، كان يستطيع القاطنون من الفلاسفة وعلماء النفس، والأطباء، والكتاب أن يراقبوا ما لا يستطيعون مراقبته في مكان غيرها، وبالتفصيل والأمثلة المتعددة، المسلسل الخاص الذي يتقلص حسبه الأفق الفكري والنفسي للفرد الإنساني، حيث يرجع الإنسان إلى الحيوانية، وحيث يموت الشخص وهو حي. لكن كان لعلماء النفس الذين حصلوا في المعتقلات شغل آخر، في غالب الأحيان، يلهيهم عن الملاحظة: كانوا هم أنفسهم يسقطون في هذا التيار الذي يجرف الفرد الإنساني إلى القذارة والعذرة».

ويورد سولجنتسين في دراسته مقتطفات من رسائل كتب إليه بها قدماء المعتقلين بعد انفراج خروتشوف. كتب إليه شالموف يقول[2]: «إن ظروف المعتقل لا تسمح للإنسان أن يبقى إنسانا، لم تؤسس المعتقلات لهذا. كل العواطف الإنسانية، من حب وصداقة وغيرة وإحسان ورحمة وطموح وأمانة، تركتنا كما تركنا لحم عضلاتنا (...) لا نعرف اعتزازا بالنفس، ولا افتخارا. كان يخيل إلينا أن الغيرة والحماس إحساسات من خارج الأرض، من المريخ (...) لم يبق لنا إلا الكراهية، وهي أقدر العواطف البشرية على البقاء».

«تعلمنا أن الكذب أخو الحقيقة. لا يرتبط الناس برباط الصداقة في البؤس ولا في الشقاء. إذا ارتبط الناس بالصداقة، فمعنى ذلك أن ظروفهم ليست سيئة

(1) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص: 1591.

(2) ما أنقله في هذه الفقرة هو من المصدر السابق، الجزء الثاني، ص:461 وما بعدها.

حقا. (...) أما المعتقل فهو مدرسة للحياة سلبية كليا وبلا أمل في العلاج. لم يخرج منه أحد أبدا بشيء مفيد. يتعلم المعتقل التملق والكذب والرذائل الصغرى والكبرى. وعندما يرجع إلى بيته يكتشف أنه لم يتقدم خلال مروره من المعتقلات، بل أصبحت مشاغله بئيسة رديئة».

ويقارن الكاتب بين السجن والمعتقل فيقول. «يواجه الإنسان في السجن (سواء كان سجنا انفراديا أو جماعيا) همه. هذا الهم جبل، لكن على الإنسان أن يتقبله وأن يألفه، وأن يهضمه وينسجم معه. وإنه لمجهود أخلاقي بالغ الشرف يرفع الناس جميعا إلى مستويات أخلاقية أعلى(...).

«أما في المعتقل فذلك الارتفاع مستحيل. الخبز لا يوزع توزيعا متساويا، بل يدفع للجماعة بلا قسمة. ارتم عليه، ألق جيرانك إلى الأرض وانتزعه من أيديهم. نصيب الواحد من الخبز قليل، حتى إنه يموت اثنان في مقابل كل واحد يعيش. إن كان الخبز معلقا على رأس شجرة فاقطعها، وإن كان في أعماق بئر المنجم فاهبط إليه! كيف يمكن والحالة هذه أن يفكر المرء في الماضي والحاضر والمستقبل والإنسانية والله؟ دماغك مليء بالحسابات الخسيسة. هذه الحسابات تحجب عنك السماء اليوم، وغدا لن تجد لها معنى. تكره العمل، عدوك الأول. تكره من حولك وهم منافسوك في الحياة والموت. في أعماق نفسك تلتهب عاطفتا الحسد والقلق، لأن من وراء ظهرك طائفة يتقاسمون خبزا كان من الواجب أن يكون نصيبك. من وراء الجدار قوم يغرفون من القدر حبة البطاطس التي كان من الواجب أن تسقط في صحنك. الحياة في المعتقل مرتبة بحيث يقرض الحسد نفسك باستمرار» (...).

«وزيادة على ذلك فالخوف مسلط عليك باستمرار. الخوف من أن تفقد «مستوى المعيشة» البئيس الذي حصلت عليه فأنت تتشبث به. الخوف من أن تفقد عملك الذي ليس أشق الأعمال في المعتقل. الخوف من أن يذهبوا بك إلى قسم «الانضباط» وزيادة على ذلك فأنت تعتدي على من هو أضعف منك ويعتدي عليك من أنت أضعف منه.» (...).

«يسمي أ. روبايلو، وهو معتقل قديم، تلوث النفس السريع تحت الضغط الخارجي: «حرب الروح» كيف يمكنك أن تتهذب، ومتى يمكنك، وأنت في لجة عواطف الكراهية وحمى هذه الحسابات الخسيسة؟» (...).

«وقد أثبتت التجربة للمعتقل، وهو في الصراع من أجل الحياة، أن الخداع هو أضمن الوسائل».

من منطلق عقيدة نصرانية يكاد يكتمها كاتبنا، نراه ينتقد إيديولوجية الغرب بشقيها اللبرالي والماركسي، ويعجب كيف ثبت النصارى عقيدة في ذلك الإعصار. يقول متسائلا: «كيف تثبت في المعتقلات النفوس المتدينة؟ لاحظنا على طول هذا الكتاب مسيرتهم الواثقة خلال الأرخبيل، وأنه ليخيل إليك أنها مسيرة صامتة معها شموع لا ترى (...) ثبات لا يصدق في القرن العشرين بلا مباهاة ولا خطابات». (...).

«ألا يمكن أن نقول قولا أقرب للحقيقة، وهو أن المعتقل لا يمكن أن يرذل أولئك الذين رزقوا شخصية ثابتة، شخصية لا تدين بهذه الإيديولوجية الحزينة التي تزعم أن الإنسان صنع ليعيش سعيدا «ثم تراها تطير عند أول ضربة بالعصا يضربها رئيس المشغل؟»

«(...) نعم إن الترذيل في المعتقلات ظاهرة جماعية، ليس ذلك فقط لأن المعتقلات فظيعة، لكن لأننا معشر الروس نضع أرجلنا على أرض الأرخبيل ونحن عزل روحيا، مستعدون لعملية الترذيل منذ زمان، مصابون بالترذيل قبل إلقاء القبض علينا. لذلك كنا نستمع بانتباه شديد للقدماء في المعتقل وهم يشرحون لنا كيف يجب أن نعيش (...)».

«إن التربية التي تريدها الدولة لا تحصل في المعتقلات. «حاملو شهادة» المعتقل لا يتعلمون إلا النفاق (فيتظاهرون بأنهم تابوا)، ولا يتعلمون إلا السخرية من توصيات الدولة، ومن قوانينها، ومن وعودها (...) لكن الإنسان الذي لم يعمل عملا مشينا ولم يجرم جرما، واعتقلوه لأنه صلى لله، أو عبر عن رأي حر، أو لأنه كان سجين حرب، أو لأن أباه كان ارتكب خطأ، أو ببساطة لأن هناك مخططا إحصائيا لعدد المعتقلين، فما يستطيع المعتقل أن يمنح مثل هذا؟»

مجتمع الصراع الطبقي

نبقى مع «شاهد القرن» كما وصف الغرب سولجنتسين، ومع كتابه «أرخبيل الجولاج» الذي أحدث في السبعينات أثرا بليغا في الفكر الغربي والضمير الغربي. كتب عنه النقاد بإعجاب لا حصر له، وقال عنه أحدهم: «من المحتمل أن يكون هذا هو كتاب القرن. سيسحق تحت كتلته، تحت ثقله الروحي والزمني كل ما نشر بعد الحرب». لا نماري أن الغرب ما احتفى بالمؤلف ودراسته كل هذا الاحتفاء، وما سابق إلى تقليده جائزة نوبل، إلا وهناك حساب سياسي يدعم قيمة الشهادة، وهي مهمة جدا. لو كنا نبحث عن نماذج للهمجية في معاملة الإنسان لوجدنا في ممارسة هتلر المجنون وقوميته الغابوية حضيض الارتكاس، وما فعله الجبار الصغير عبد الناصر بالإخوان المسلمين والأخوات المسلمات رذالة وترذيل لا يشحب جبينها عند المقارنة بشيء مما فعله زعيما القومية والاشتراكية والثورة العنيفة في ألمانيا وروسيا. لكن «البناء» الستاليني يمتاز بأنه تطبيق لمنهجية مدروسة، تطبيق سبقته نظرية وأيدته، فهو النموذج العملي لمن يريد قفزة ثورية، وتعبئة شعبية، وسَوْق أمة لتخطي التناقضات الجدلية التاريخية بإخماد كل حركة مضادة، وكل نفس معارض.

ثم إن آثار «التربية» اللينينية الستالينية باقية، لها يدين بوجوده المجتمع السوفياتي وفي ظلها نشأت العقلية السوفياتية، وفي تاريخها الإطار المرجعي لكل ثوار العالم الاشتراكيين.

قال سولجنتسين[1]: «هل نستطيع، أم هل نجسر على وصف كل الخزي الذي عشنا فيه، وإن خزي اليوم لا يختلف عن خزي تلك الأيام؟ لكننا نكون كاذبين إن لم نكشف بكل قوة عن هذا الخزي».

ثم يعدد الكاتب ملامح الوجه البشع لمجتمع الصراع الطبقي، ونفسيته وأخلاقه، وقد كان كتب دراسته عن الجولاج وهو في روسيا بعد الانفتاح الخروتشوفي الذي لم يكتشف الحقيقة، ولم يفضح «الخزي» بل اكتفى بالإشارة إلى ذلك «بالمقدار الذي تسمح به الموضة، بالغمز، بالتلميح، بالمسكوت عنه، بالإضافة الكلامية، ثم يرجع كل شيء إلى الكذب». كان الكاتب ينتقد فظائع الجولاج ورذالة المجتمع بأسره من جراء وباء الرعب والإرهاب «التربوي» المتفشي، مستندا إلى مجتمع الغرب الرأسمالي وحرياته، مقارنا بالمجتمع القيصري في روسيا ورحمته بالمعتقلين. فلما خرج الكاتب إلى أمريكا ورأى عن كثب مجتمع الإرهاب «الحر» والعصابات الدولية والرذيلة المحترمة اجتماعيا، وغابوية الرأسمالية، وعدوانية الإمبريالية، عاد فكتب نقدا شاملا للجاهلية بشقيها راجعا هذه المرة إلى ما سماه «الفضيلة» راجعا إلى القيم النصرانية. نستمع إليه وهو يتحدث في موضوع خبراته وتجربته.

يصف الرعب الذي كان يسود المجتمع ما بين سنوات 1935 و1949 فيقول: «لم يكن الخوف ناتجا فقط عن توقع الاعتقال، بل كانت هناك درجات وسطية: الطرد، التحقق من الهوية، استمارات تملأ، استمارات عادية أو استثنائية، تسريح من العمل، سحب التصريح بالسكنى، الإبعاد أو النفي.

(1) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص: 470 وما بعدها.

كانت استمارات البحث موضوعة بكيفية بالغة التفصيل، حتى إن أغلبية السكان تشعر بالجزع من الساعة التي يطلب إليهم ملؤها».

ويصف الاستبعاد بإلزام الناس مكانا لا يغادرونه: «كنا ملزمين بالبقاء في مكان لا نغادره يخصصه لنا تصريح، ملزمين بمسكن لا يمكن أن نبيعه ولا أن نستبدله ولا أن نكريه».

ويصف الاستخفاء والارتياب فيقول: «هذه العواطف أعقبت الصراحة القلبية وإكرام الضيف اللذين كانا عندنا. (...) هذه العواطف (الاستخفاء والارتياب) هي الدفاع الطبيعي لدى كل اسرة، ولدى كل فرد، نظرا إلى أن أي أحد لا يستطيع أن يغادر مكان عمله، ولا أن يسافر. وكل صغيرة في سلوك الناس تنبش وتراقب عن كثب عدة سنوات. إن استخفاء الإنسان السوفياتي ليس أمرا مبالغا فيه، بل هو ضرورة، وإن كان الملاحظ الأجنبي قد يعتبره أحيانا شيئا خارجا عن الطوق البشري (...).

«هذا التخوف العام المتبادل وعدم الثقة تحفر دائما بعمق أكثر الهوة المشتركة للعبودية. لا تكاد تبدأ في الحديث بصراحة حتى ينفر منك الجميع: يظنون أنه استفزاز تريد به أن تكشف أسرارهم (...).

«الكل يستخفي من الكل ويتخوف ولا يثق. وهكذا اشتركنا جميعا في إحلال الغياب الكامل للاطلاع بيننا. طمس كامل للمعلومات. وذلك سبب كل ما حدث: ملايين الاعتقالات توافق عليها الجماهير. وبدون أن نتصل فيما بيننا، أو نشكو بآهة، وبدون أن يخبر أحد أحدا بشيء، سلمنا أنفسنا للجرائد والخطباء الرسميين (...).

«كان التجسس متفشيا إلى درجة لا تتصور. مآت الآلاف من العاملين الإجرائيين، ظاهرين في مكاتبهم الرسمية، أو قابعين في ركن عادي في العمارات العامة، أو في شقق سرية، يستهلكون بلا حدود الورق والوقت، يستقطبون إلى صفوفهم بدون انقطاع (...) عددا هائلا من المخبرين لا يتناسب عددهم الكبير مع حاجات التجسس. (...) واضح انهم كانوا بعدد المخبرين يرمون إلى أهداف، منها أن يشعروا كل مواطن أن مكاتب المخابرات تلاحقه، فهو يحس في قفاه النفَس الملتهب الخارج من مناخيرها، يريدون أن يكون مخبر في كل اجتماع، في كل قاعة عمل، في كل شقة، وأن يخاف الجميع أن يكون معهم مخبر» (...).

وهكذا أصبح الغدر نمط حياة: فلطول معاناة الخوف عدة سنوات وباستمرار، الخوف على نفسك وعلى ذويك، تصبح تابعا للخوف، خاضعا له، فيظهر لك عندئذ أن الغدر باستمرار هو أقل أوجه الحياة خطورة وكان الغدر الأكثر بساطة أن لا تقترف شرا بكيفية مباشرة، لكن أن تتجاهل جارك وهو يسقط في الهوة، وكان هذا النوع من الغدر أكثر الأنواع عموما. ها هم اعتقلوا جارك، رفيقك في العمل، صديقك الحميم. لا تساعده، التفت إلى الجهة الأخرى، حاول أن تبدو صغيرا، اسكت، كن كمن لم ير شيئا (...) وفي الاجتماع سيعلنون أن الذي ألقي عليه القبض عدو للشعب. وأنت الذي قضيت معه عشرين سنة على نفس المكتب يلزم أن تبرهن بصمتك النبيل، إن لم تساهم بخطاب اتهامي، أن لا علاقة لك بجريمته. تقدم هذه التضحية من أجل أسرتك العزيزة، من أجل أقربائك! بأي حق يمكنك أن لا تفكر فيهم؟ لكن المعتقل الغابر ترك زوجة وأما وأطفالا. هؤلاء على الأقل يلزمك أن

تساعدهم؟ كلا! فهذا شيء خطير جدا: إنها زوجة عدو، أم عدو، أطفال عدو! تذكر أن أطفالك لا تزال أمامهم سنوات دراسة طويلة» (...).

«وفي هذا الجو يسارع إلى المجتمع الانحلال والتعفن. في جو ساده الخوف والغدر لسنوات طويلة لا يبقى حيا إلا الجسم. لكن ما في باطن الإنسان يتعفن. هذا هو السبب الذي يجعل ملايين من الناس يقبلون أن يتجسسوا على الناس. (...) أصبح كشف القناع عن وجه عدو للشعب فضيلة طبقية. كل هؤلاء الناس (الجواسيس) يعيشون بيننا، غالبا ما يحيون حياة مزدهرة. بل إننا نعجب بهم: المواطنون السوفيات الأخيار!» (...).

«سرطان الروح يتغلغل في الخفاء، ويفضل الوصول إلى جهات كان ينتظر أن يحكمها الاعتراف بالجميل». ويسرد الكاتب أسماء علماء وشى بهم تلامذتهم ليحتلوا بعدهم كراسي الجامعة، ولينتحلوا مخترعاتهم، وهكذا احتل الرعاع والأرذال أماكن القيادة، وصعد رجال الحاشية المنافقون.

قلعة الثورة

الشباب قليل الاطلاع على التاريخ عندما يمر بأزمته الماركسية، لا يريد حتى أن يسمع نقدا موجها للدولة الاشتراكية العظمى. سبقت إليهم الدعاية الماركسية فأذكت فيهم الحماس «للقضية الكبرى» وتمازجت عندهم الإيديولوجية بالأحلام الثورية، فكان الغرام المراهق غير المشروط. حبك الشيء يعمي ويصم كما يقول العرب. ونقول نحن بلسان القرآن الكريم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[1]. وتطول المراهقة الفكرية ببعضهم حتى يصبح كاتبا منظرا للاشتراكية العربية، فيكتب كل كلمة من قاموس المعتقدية الماركسية، ويستمد كل مَدّة من محبرة الفلسفة الماركسية، ويكرس كل نفَس من أنفاسه للدفاع عن قلعة الثورة العالمية، مبررا كل التجربة، تائها على أهل الخبال الفكري الذين لا يدركون أسرار الثورة، ومزايا الستالينية وحتميات المسيرة المظفرة.

من الاشتراكيين العرب شطر مهم يهتبلون بالتحليل الماركسي لتاريخ المسلمين، تحت أقلامهم تنازع المادية مشروعية الدين، وتفسر مولده، وتطوره. كما تحذف الجدلية كل أخلاق، وكل اعتقاد، وكل إنسانية. ومن الاشتراكيين العرب من يريدها اشتراكية تعددية كما كانت في عهد ماركس وحزبه الاشتراكي الديمقراطي. هؤلاء يدينون التجربة السوفياتية، ويبرهنون عن الحد الأدنى من النضج والاطلاع والفهم لمسيرة العنف وجحيم الدكتاتورية الطبقية.

(1) سورة البقرة، الآية: 171.

وكما أن حبك الشيء يعمي ويصم، فإن كراهيتك الشيء تصنع في قدرة الناس على التمييز العجائب. كان السبق للينين في وصف الإمبريالية وفضح طغيانها. وكان للدولة العظمى السوفياتية، بعد أن أسهمت في إسقاط الوحش النازي الكاسر، الأثر الأول في تحرير الشعوب التي كانت مستعمرة. لهذا أحرزت «قلعة الثورة» على احتكار سمعة التقدمية ومناهضة الاستعمار حتى أصبح الشباب المتحمس الذي يرى ويعيش بطش الإمبريالية الأمريكية ويصلى بنارها، وتثور معاني الإنسانية في صدره غضبا عليها، أن روسيا هي النقيض، وأنها هي الصديق، وأنها هي الملاذ. ولا بد أن يكون نقيض الإمبريالية تقدمية محررة، ونقيض العدو صديقا محضا، ونقيض الخطر المخيف ملاذا آمنا، ونقيض الضراوة الاستعمارية إنسانية فاضلة.

ويركِّب أولياء الدولة العظمى وحماة قلعة الثورة على أعينهم منظارا يرى من هاهنا الخير المحض ومن ها هناك الشر المحض، وبذلك لا يشارك عقلاء الناس من العامة إدراكهم الفطري المباشر للأحداث ومعانيها. فغزو أمريكا للفتنام همجية، أما إنجاد روسيا للرفاق في أفغانستان فوفاء للثورة العالمية. إرساء قواعد اليهود في فلسطين ودعمهم غير المحدود شناعة إمبريالية. أما القضاء المبرم على الشعوب الإسلامية في تركستان، ما وراء القوقاز، وإتباعها للأم روسيا فرسالة حضارية.

إننا من الوجهة الإسلامية ننظر إلى الجاهلية ككل، ليس أبشع وجها من جاهلية الشرق إلا جاهلية الغرب، والعكس بالعكس. لكننا نريدها نظرة تميز، تفهم، تطابق الواقع ولا تعصف بها الانفعالية. وما استحقت منا الماركسية كل هذا التعليق الطويل إلا لأن العدل الاجتماعي الذي ننشده مع سائر المحرومين

ارتبط في أذهان بعض المثقفين، وكثير من الشباب المتحمسين بتجربة معينة، فعنوانه هناك، وقلعته هناك، ومرجعه هناك، ونموذجه هناك، لا فكاك، لا فكاك!

يقيِّم أحد الماركسيين، كان ماركسيا قبل أن يسلم، التجربة السوفياتية، ويذكر كيف ولماذا رفض الماركسيون المتعصبون زمانا الاعتراف بضلال الوصفة اللينينية الستالينية. رجع هذا المحلل إلى الاعتراف بموضوعية الباحث عن الحقيقة إلى التمييز. رجع من موقف التعصب الأعمى الذي لايزال موقفَ بعض مثقفي العرب، وكثير من المتحمسين للثورة بصيغتها اللينينية. لا يذكر هذا المحلل لينين بسوء، ومن يقدر أن يطعن في عبقري هذا القرن؟ وإنما يلصق التهمة والسلبيات بشخص عبقري التربية وإعادتها. إنه رجاء جارودي في كتابه «ماركسية القرن العشرين» الذي كتبه منذ أزيد من عشرين سنة يفتح فيه الحوار الواسع، ويبحث عن طريق إلى «ماركسية حية» بدلا من الماركسية العقائدية الستالينية. وقد استنجد في بحثه بلينين، ففاته من الوعي بمصدر البلاء على قدر هذا الاعتماد. والرجل جاء للإسلام، فنرجو له الانتهاء من ذلك المطاف العقيم بين ربوع الجاهلية.

يقول بعد أن ذكر مساوئ الإمبريالية[1]: «كنا إذن نحارب الشر المطلق، فكيف كان لنا أن نعتقد أن قضيتنا هي الخير المطلق؟ لذلك استرحنا إلى هذه النظرة المانوية (نسبة إلى ماني الذي كان يؤمن بإله للنور وآخر للظلام) للعالم. نرى الشر كله في جانب (...) ونرى في الجانب الآخر الخير كله، لا ظلال فيه ولا درجات، وباسم الولاء الحزبي نرفض أخذه بأي تمحيص نقدي. وهكذا قبلنا في حماس حتى دون أن تفرض علينا... بالمعتقدية الستالينية (...).

(1) مقدمة في الكتاب، ص: 34 وما بعدها.

«على أن بناء الاشتراكية ظل برغم ذلك مستمرا وفقا للخطة التي رسمها لينين».

لم يعترف الرجل بأن الخطة عنف وإقناع بالإرهاب من أصلها فتجنب مس لينين من قريب أو بعيد. واعتبر ملايين البشر الذين طحنتهم معصرة الإرهاب «ثمنا» لتقدم الحركة، دون أن يشير بكلمة إلى الأثر «التربوي» الذي وصفه لنا سولجنتين. قال: «على أنه يبقى أن الحركة، إذا هي استطاعت أن تتابع مسيرتها في المجالات الرئيسية، فقد دفعت ثمنا لذلك تبديدا رهيبا للوجود الإنساني، إذ أن ربع القرن الذي احتجبت فيه الأصالة الماركسية النقدية والعملية، أي العلمية، ليقوم مقامها تصور للعالم وللمعرفة أصبح معتقديا ولاهوتيا. (ربع القرن هذا كان باهظ التكلفة: ملايين من الحيوات) (...) والعدوان على الديمقراطية في الحزب وفي الدولة ينشأ بالضرورة من هذا التصور اللاهوتي للعالم وللتطور التاريخي وللفكر البشري». واسمع ما يلي فهو فص هذه الفقرة.

«ولقد حالت الظروف التاريخية طويلا دون إدراك هذه الخطيئة المميتة، إذ كان الاتحاد السوفياتي قلعة معزولة، وكانت أنظمة الغابة والقنص، المسؤولة عن مذابح الحرب العالمية الأولى، وعن الإبادة الاستعمارية للشعوب والحضارات في ثلاث قارات، تحاربها حرب إفناء، عسكريا واقتصاديا وعقائديا.

«لذلك لم يكن لنا خيار، فقد كنا إذا لم ندافع بحماس عن الأمل الوليد الذي بعثته ثورة أكتوبر، نضع أنفسنا شئنا أم أبينا في خدمة القوى المبيدة للإنسان، ولذلك ارتضت ملايين من الرجال، في جدل ورجولة، أن تضحي بحياتها أو بحريتها في هذه المعركة».

رحمك الله يا جارودي وهداك بين ظهراني الإسلام للحق. كيف ارتضت ملايين الأرخبيل الجولاجي بالانحشار إلى الموت؟ من تلقاء نفسها؟

إن العرب القوميين الاشتراكيين في بحث مستمر عن «الطريق العربية إلى الاشتراكية «وعقلاؤهم يدينون التجربة السوفياتية بنوع من الخجل الذي نقرأ عند جارودي الأمس. وهم يبحثون عن «ماركسية حية» يطعمون بها القومية العتيدة فكيف يستطيعون أن يفلتوا من منطق العنف الثوري؟ كيف يجلون عن أعينهم غشاوات الانفعالية والانتقائية ليتقدموا للأمة بمشروع تقبله الأمة.

كيف يبصرون الحق الإسلامي كما أبصره جارودي الذي عزم في كتابه قائلا: «ألا نؤمن إلا وأعيننا مفتحة». وقد كان، فجاء يسعى إلى إسلامٍ بعد أن فتح عينيه، إسلامٍ بعض القوميين زاهدون فيه، مصممون على حربه.

الممارسة معيار الحقيقة

نستطيع أن نتحدث عن وجود فجوة بين النظرية والتطبيق، بين الخطة والإنجاز، بين مرحلة السير والهدف، إذا كانت هناك مسافة بين القصد والعمل، بين البداية والنهاية فيما يخص المشروع الماركسي، ربما باستثناء السباق الاقتصادي، لا يمكن أن نتحدث عن وجود فجوة لأن النتائج كانت في الاتجاه المعاكس لما سطرته الإيديولوجية، وما تنبأت به الحتمية.

أحيل القارئ الكريم إلى كتاب «دروس في الماركسية» لجلال الدين الفارسي، ففيه نقاش متأن للنظرية الماركسية والاستدلال على تهافتها بالأمثلة الحية في مقابلة النصوص.

أما أنا فقد عمدت هنا إلى تتبع الماركسية اللينينية من لدن الصرخة المجنحة التي اعتلجت بين ضلوع الاشتراكيين الأوروبيين في القرن التاسع عشر إلى أن تجسد الحلم في ممارسة دولة عظمى. وتابعت الروح الجاهلية، الكفر بالله والعنف على الإنسان، وهي في مسيرتها إلى إكمال الشكل الجاهلي والمضمون الجاهلي في الوجود، وقد كان ناقصا في المجتمع الرأسمالي الإمبريالي.

لن نحاكم الماركسية إلى حكَم لا ترضاه، ولن نقيسها بمعيار خارج عن العلمية التي تلتزم بها في زعمها. لن نسألها ماذا فعلت بمعنى الإنسان وروحه وتوجهه إلى خالقه، فذاك شأن مقطوع عن اهتمامها لكن نسألها ماذا فعلت

بالإنسان باعتباره كائنا له حرمة وطموح إلى الأمن والكرامة. نسألها ماذا فعلت بإنسانية الإنسان.

أنصف ماركس حين كتب في أطروحته الثانية في نقد فويرباخ: «هل يستطيع الفكر الإنساني أن يصل إلى حقيقة موضوعية؟ إن قضية معرفة ذلك ليست قضية نظرية، بل هي قضية عملية. ففي الممارسة وحدها يجب على الإنسان أن يثبت حقيقة فكرته، وقوتها، وواقعيتها الأرضية».

ومن الإنصاف أن نعترف أن فكرة ماركس جاءت بلاهوت أرضي سلك إلى عقول الناس كل مسلك، ووجه الفلسفة الغربية توجيها ماديا صرفا بعد أن «طهرها» من التعلقات المثالية. وحول منهجية تفكير العصر الى الجدلية والتناقض والصراع. لكن لولا أن الماركسية تولتها أيد مصممة، لينين وجماعته، لما كان لها ذلك الشيوع والذيوع. وإن الماركسية لما دخلت على يد هؤلاء إلى مجال الممارسة انحسرت كل محسنات البرنامج، وسقطت كل زخارفه، وما أثبت «واقعيته الأرضية» إلا العنف الإرهابي الذي يؤتي ثماره المعروفة في كل مجتمع، يمتاز في ذلك الإرهاب «العلمي» الاشتراكي عن غيره بطابع المنهجية والتفوق «التربوي». نزلت الماركسية من عليائها الفلسفية وتشكلت في ملخصات ستالين الى قوالب معتقدية ما على المجتمع، وما على الناس كافة، إلا أن يوافقوا متطلباتها وينحشروا طوعا أو كرها فيها.

انتقدت الماركسية الديموقراطية البرجوازية التي قسمت وجود الإنسان قسمين، حيث أعطت الفرد في المجتمع حرياته اللبرالية الفردوية القاضية بأن يتمتع الفرد بحرية الاختيار في عمله وسكنه وجده ولعبه وحركته وسكونه،

وأعطته إلى جانب هذا وجودا سياسيا منفصلا بوصفه مواطنا يشارك بحرية في الإدلاء بصوته.

يعتبر ماركس أن التحرير السياسي الفردوي المواطني المزدوج هذا ليس هو التحرير الشامل المطلوب. يعتبر أن التحرير الاقتصادي هو قاعدة التحرير، وما دامت هنالك طبقة تهيمن على طبقة أخرى فالإنسان مرهون الحرية.

يقترح ماركس حرية جديدة للإنسان، لا تكتمل إلا في ظل نظام لا طبقي وهو النظام الشيوعي. وذلك حين «يبطل الصراع بين الوجود الفردي الحسي للإنسان وبين وجوده النوعي». معنى هذا خارج لغة الصراع، أن الإنسان لا يصبح حرا إلا عندما يندمج في النوع البشري ويذوب فيه.

على قاعدة التحرير الاقتصادي ينبني حسب اللاهوت الماركسي تمثال للحرية الشاملة، في مقابل التحرير السياسي الفردوي المواطني المنشطر المحدود الانتماء، يطلع على الإنسان أمل في الحرية الحقيقية «عندما يتعرف الإنسان على قواه الخاصة، فينظمها بوصفها قوى اجتماعية، وبالتالي لا يعود يفصل أبدا عن ذاته القوة الاجتماعية على شكل قوة سياسية».

في العبارة الأخيرة إشارة إلى أسطورة اضمحلال الدولة زمان انتهاء الطبقية ووقوف عجلات الجدلية عن دحرجة التاريخ.

طالما ندب ماركس سوء حظ العمال في المجتمع الرأسمالي، وطالما قعد يفلسف الاستلاب الواقع على العامل الذي فقد إنسانيته وقيمته ومعناه عندما سطا الرأسمالي على فائض قيمة عمله. واللفظة الأجنبية «**Aliénation**» التي اصطلح العرب على ترجمتها باستلاب، تحمل معنى جعل العامل غَيرا،

أي إخراجه عن حقيقته. وإذن فالتحرير الاقتصادي هو الذي يرد إلى الإنسان هويته المفقودة.

لكن ماركس لا يتصور مذهبه نقيضا إيجابيا للرأسمالية، ولا يهدف إلى تقويم اعوجاجها، بل يأتي بالبشارة بمجتمع المرحلة التالية التي تجد فيها الإنسانية ازدهارها. يتصور مذهبه بشارة بقفزة النوع البشري إلى ممارسة كلية يتحقق فيها التحرر الكلي. ليست العبرة عنده بالفرد ومصيره، بل العبرة بالنوع البشري الذي يذوب الأفراد فيه. التحرير الاقتصادي يفتدي الفرد من «ألينته» (استلابه) وعلائق الإنتاج الاشتراكية المتقدمة، حين تصبح الدولة أثرا بعد عين، تضع في يد المجتمع وسائل التحكم في الطبيعة وفي المجتمع. فتحرير الفرد اقتصاديا وسيلة لا غاية.

غاية الغايات كانت عند كانط الفيلسوف اللبرالي هو الإنسان. وذلك كان ولا يزال معنى الإنسية (هكذا أترجم **Humanisme**) الأوروبية. عند ماركس إنسية الإنسان وغاية الغايات عندما لا يعود الإنسان «يفصل أبدا عن ذاته القوة الاجتماعية في شكل قوة سياسية». أي عندما يتبخر وجود الإنسان الفردي، فلا تكون له من الأهمية إلا أهمية تكون لانعكاس الشعاع على صفحة. ما دام المجتمع، أي مجتمع، إنما يستمد أفكاره ونظامه وثقافته ودينه ودولته من القاعدة الاقتصادية، فالفرد الإنساني ما هو إلا انعكاس للمجتمع. إنه «جماع علاقته الاجتماعية» كما عبر ماركس في أطروحته عن فيورباخ.

هذا الإنسان «جماع العلاقات»، الانعكاس، يتعب الباحثون عن «ماركسية حية» ليجدوا في نصوصهم المقدسة ما يثبت له وجودا موضوعيا مستقلا. وإنهم ليغادرون حين يفعلون ذلك أرضية الماركسية، ويطلّقون معيارها العلمي، ألا

وهو الممارسة. ولا ممارسة هناك إلا ما تراه وتسمعه عن واقع دولة عظمى تفوقت في كبس الإنسان، ودمجه في القطيع.

أما التحرير الاقتصادي فليس في وسع مواطني البلاد المتخلفة مثل بلادنا أن يطعنوا فيه ومن هنالك لا تصلنا شكوى، ولا نسمع بمجاعات، ولا نعرف شيئا عن وجود مدن الصفيح. لكن تصلنا شهادة الهاربين تخبرنا بوجود طبقية. وكتاب فوسلنسكي الذي نشر في الغرب في أول هذا العقد بعنوان «**Nomenklatura**» كفيل بإزالة كل شك.

وأما التحرير الذي يشكل بالفعل تفوقا عظيما على الدولة الرأسمالية، فهو التحرير من الإرهاب العام بإرهاب النظام البوليسي. البديل المنظم عن ازدراد الحرية للحرية، ازدراد حرية القوي المسلح في شوارع نيويورك وحدائقها العامة لحرية من عداه، وهو ازدراد الدولة لكل حرية. ولعل قانون النمو التاريخي للمجتمعات العصرية يتمثل في زيادة سلطان الدولة وقبضها قبضا شديدا من جميع الأطراف لحرية الإنسان ومعناه.

بمعيار الممارسة، من خلال النموذج الماثل للدولة الاشتراكية العظمى، نستطيع أن نستشف كآبة مجتمع إرهاب الدولة، وكآبة الإنسان القطيعي في بلاد الثورة اليسارية، كآبة تضاهي كآبة إنسان الحرية الغابوية في بلاد الرأسمالية.

لكن تخلفنا وهزيمتنا التاريخية وإلحاح الضرورة للخروج من مأزقنا يرفع تحدي «الإنجاز» الماركسي اللينيني إلى حجم مهول في ضمير طائفة من ذراري المسلمين كما هو ماثل تحدي الحضارة الغربية المتألقة بإنتاجها وسلاحها وتفوقها التكنولوجي في بلاد الرأسمالية.

وعلى الله قصد السبيل إلى المنهاج الإسلامي الذي يكفل للأمة حرية تثبت الإنسان في كرامته الآدمية، ويكفل لها عدلا لا يكون إرهاب الإنسان، ودمجه في القطيع، ومصادرة حريته شرطا لتحقيقه.

إنه الحكيم العليم لا إله إلا هو.

الخاتمة

ختم الله لنا بالسعادة والشهادة والحسنى وزيادة. وختم لهذه الأمة بما وعدها من استخلاف في الأرض حتى لا يبقى على الأرض بيت حجر ولا مدر إلا دخله الإسلام، ولا في جنبتها إنسان إلا واستظل بظل الإسلام، وتمتع بكرامة الإسلام، وأَمِن في عدل الإسلام. آمين.

كلما ذكرت الشريعة وتطبيقها، كلما طالب بذلك مخلص لله ولدينه أو رفع الشعار مختلس أفاك، أو سيق حاكم إلى المسار الوحيد الذي تقره الشعوب الإسلامية الباقية في مجموعها وعلى مستوى الجماهير على فطرتها، انصرفت الأذهان إلى جانب العقوبات الشرعية، وتألب نقد الناقدين على دموية الإسلام، ووحشية شرائعه.

ولقد تأتي ممارسة تسرف في العقاب، بل تقدم العقاب على كل بناء تربوي سياسي اجتماعي من شأن العقاب أن يُنصب لصونه وحمايته.

ولا تكاد تجد من تقترن ضرورة تطبيق شرع الله في ذهنه بهذه الضرورة الملحة الأساسية، ضرورة تحرير المجتمع المسلم من الوباءين: الظلم الاجتماعي، والظلم السياسي المتلاحمين المتظافرين. لا تكاد تجد من يسبق إلى تصوره عند ذكر الشريعة وتطبيقها، حاجتنا الأولى إلى الشورى نستبدلها بالاستبداد، والعدل في القسمة نستبدله بواقع التفاوت المزري في التملك.

هنا يتجلى تحدي الإيديولوجية الماركسية التي تضع الأصبع الفلسفي على موطن الداء: الطبقية. ويتجلى تحدي الممارسة اللينينية الثورية المعززة

بوجود الدولة العظمى «حامية الشعوب» التي تتقدم بالنموذج النضالي التنظيمي العملي لتغيير الواقع الطبقي من خلال الصراع «الحتمي» الذي يقتضي أن تفتح الطليعة الثورية المجال للطبقة المنقذة حتى يقوم «الشعب المسلح» بكسر آلة الدولة الآثمة واستخلاص الاقتصاد من الطبقة المجرمة، ثم إبادتها، ثم «إعادة تربية» قوم آخرين.

قد يكون كثير من رجال الدعوة أسرى المرحلة التي لا يزال يرتجل فيها حزب الله، فتكون تربية المؤمنين وتنظيم الصف ومعالجة الأمراض الجماعية الفكرية والسلوكية شاغلا عن رسم الأفق السياسي للدولة الإسلامية. وبهذا الانشغال عن وضع الخطوط الواضحة للحكم الشوري والعدل الاجتماعي، إزاء إبراز ضرورتهما وتلاحمهما وتضامنهما في مواجهة تضامن الاستبداد السياسي والنظام الاجتماعي في واقع المسلمين، تفوتنا فرصة السير في وضوح كما يسير في وضوح أولئك الذين عين لهم العدو الطبقي، وحدد مجال الصراع، وعلموا طرائقه الإجرائية، وأهدافه العملية، وعرضت عليهم النماذج التاريخية، فهم على يقين في مسارهم الذي تحدوه شعارات الإيديولوجية المبسطة الجهنمية، وتلهبه وتحرضه إلى مرحلة متقدمة، فولجوا الميدان حيث وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع الضرورات الآنية الملحة، فهم يتحدثون عن المترفين والمستكبرين وعن المستضعفين في الأرض وحاجتهم إلى التضامن لينتصفوا من القوى الطاغوتية. ما للمسلمين مرجع إلا دين الله، فنعم التلقائية تلك التي تخصب الخطاب الإسلامي بهذه الكلمات القرآنية!

لكن نريد أن يكون التفاتنا لمعاني الاستضعاف والاستكبار والترف والظلم والطاغوتية فقها واضحا، وأن يكون تعلقنا بهذه المعاني نبراسا يضيء لنا تاريخ المسلمين، ودليلا لفرز أصناف المجتمع المسلم المعاصر، وخطة

لبناء مستقبل الدولة الإسلامية والوحدة الإسلامية والعدل الإسلامي، نكون بها على بينة من الواقع الطبقي العالمي والمحلي، على بينة من وشائج المصلحة والتناصر بينهما، على بينة من أن استبدال المجتمع الأخوي المنشود في ظل الإسلام بهذا الواقع لن يتأتى بالمثالية الحالمة، ولا بالعنف الكاسر، ولا بالمطالبة السياسية، بل يتأتى بالجهاد الذي جعله الله عز وجل شرعا يضبط حركة جند الله في حلبة التاريخ التي أرادها جل شأنه مسيرة تدافع بين الناس لا تصلح الأرض بدونه.

إن تحدي الماركسية اللينينية للمسلمين لا يثبت لحظة لو كان الأمر جدالا ونقاشا. وإن آلاف الكتب والمقالات يُدْحض فيها الفكر الماركسي أو يكشف فيها عنف الماركسية اللينينية ووحشية «التربية» الستالينية لن تغني شيئا إن بقي المشروع الإسلامي متمسكا بغموض الموقف الذي يردد في تعال وشموخ أن الأمة واحدة، وأن لا فضل لهذا على هذا إلا بالتقوى، ويقف على «ويل للمصلين» فيذكر أن «الله فضل بعضكم على بعض في الرزق».

هناك طبقية صارخة قذرة عاتية في بلاد المسلمين، وتجد كثيرين يصرخون ببراءة ساذجة سابحة في التجريد أوبتبلد مقصود أن لا طبقية في الإسلام!

نعم دين الله لا يقر أن يبيت جارك جائعا وتبيت شبعانا، ولا يلوم الجائع إن حمل السيف يطلب حقه، ويأمر دين الله ببذل الفضول، وينص كتاب الله على أن في أموال المؤمنين حقا للسائل والمحروم، لكن الحالم المتجرد، أو المتبلد الفاسق، يزيح هذا الدين الآمر بالعدل وتسوية القسمة إلى هوامش الفقه الفردي الذي يهم القاضي حين يفصل بين الخصوم، ويهم الواعظ حين يستحث أهل الرخاء على الصدقة، ويهم الكاتب حين يمجد الإسلام في علياء مثاليته.

ويبقى دين الله القائم على العدل معلقا في الهوامش البريئة هذه، منفيا من الواقع الذي تطحن فيه الطاغوتية الطبقية الجاهلية بكلكلها المسلمين مع سائر المستضعفين في الأرض من بني آدم.

إننا إذ ننتقد الماركسية اللينينية لإلحادها وكفرها وعنفها على الإنسان نحس بألم شديد غياب التحليل الإسلامي للاستكبار والاستضعاف في خطاب رجال الدعوة. وكأن اكتظاظ مصر بهذه الاجيال المباركة إن شاء الله بينما يشكو السودان من الخلاء البشري قسمة للأرض يرضاها دين الله الذي يدين به المسلمون في البلدين «الشقيقين» حسب التعبير الاستهلاكي المخدر. يا لها من أخوة ما أشقاها! إن كان احتجان طائفة من المسلمين لأموال طائلة تصرف على موائد القمار وبناء دور للعجزة والأيتام في فلادلفيا ونيويورك بينما يفتقر العاطل المسلم، والمجاهد الأفغاني، والمكسور الجناح في بنغلاديش، والأعزل في مواجهة جيش اليهود المغتصب، إلى لقمة العيش، وطلقة رشاش، ومهنة تكفل رزق العيال.

ليس هذا نواحا أخلاقيا مما هو مألوف في أدبيات المسلمين. بل هي إشارات لا تغطي عنا الوعي بالمواجهة الواقعة بين الاستكبار العالمي والمستضعفين في الأرض. في عقر ديارنا طبقية ذنبية، الرأسمالية المحلية تدين بالولاء للرأسمالية الغربية، وبرجوازية الدولة الاشتراكية تدين بولاء مثله للنمنكلتورا السوفياتية، والشعب المسلم ضائع ضياع قضيته بين أنياب النظامين الاستكباريين الفاجرين ومخالبهما.

فبأي منهاج يقترب جند الله من عويصة فك الارتباط بين جسم الجاهلية من خارج وذَنَبها بين ظهرانينا؟ وما هو برنامجنا لتطبيق الشريعة بحيث تكون

طاعة الله عز وجل في المال وقسمته، والملكية وإلجامها، وكفالة المسلمين وتكافلهم كطاعتهم في الصلاة، بحيث تكون الطاعة الفردية للمولى سبحانه مقترنة في السلوك الجماعي بطاعته في الشأن العام، مسايرة لها، متصلة بها غير منفصلة كما يحب العلمانيون؟

إن طاعة الله تعالى الفردية تتعلق بذمة المسلم وتنظر إليها، أما طاعته الجماعية، في الحكم والمال، أي في السياسة والاقتصاد، فتتعلق بذمة جماعة المؤمنين المخاطبة بالقرآن، المنوط بها تكليف إقامة دين الله في الأرض.

طاعة الله تعالى الجماعية تقتضي مقاومة الظلم والاستكبار أينما كان، وتقتضي نصرة المستضعفين، وتقتضي القتال من أجل ذلك، ائتمارا بقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾[1] بصيغة الاستفهام الاستنكاري هذه الحازمة العازمة.

وليس الاستكبار صيغة للتكبر ونوعا من الشموخ يوصف به الفرد الأناني المستعلي. إنما هو وجود تكتل اجتماعي سياسي اقتصادي يطأ المستضعفين ويعلو في الأرض بغير الحق ويفسد فيها ويصد عن سبيل الله، ذلك السبيل الذي لا يقر بحال أن يعلو أحد من خلق الله على أحد، أو يظلم أحد أحدا، أو يحكم أحد بغير ما أنزل الله، أو تستأثر طبقة بالمال والسلطان.

مفهوما الاستكبار والاستضعاف لا تغطي مساحتهما مفاهيم الطبقية والشعب المسحوق، إذ الاستكبار صد عن سبيل الله قبل كل شيء، صد يستند إلى البطش الذي يسلحه المال المنهوب والسلطان المستبد به من غير رضى

(1) سورة النساء، الآية: 75.

المستضعفين. في الإيديولوجية الأرضية يدان التسلط الثقافي الذي تمارسه الطبقة السائدة على الطبقة المسودة لتحرمها من الوعي الطبقي المحرر. مع المفاهيم القرآنية الدائرة حول الاستكبار والمال والاستعلاء والطاغوتية وما إليها يقترن الصد عن سبيل الله بحرمان المستضعفين من الوعي الأسمى الذي تلخصه كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله.

على خارطة المواجهة الحضارية بين الإسلام والجاهلية، في هذا العصر وفي كل عصر، تتجسد الجاهلية في الاستكبار العالمي بشقيه الرأسمالي والاشتراكي. ولهذا الأخطبوط الاستكباري امتداد داخل مجتمعاتنا ووجود مكثف تمثله الزمرة الملحدة جهرا أو اللابسة لباس الإسلام ثوبي زور. ولا يمكن بحال أن نقاتل الاستكبار العالمي دون أن نقتلع من بين ظهرانينا أوكار الشر.

لن يتم ذلك بالتصالح البليد، ولا يصلح في قلعها استعمال العنف الأعمى الناتج عن تكفير المسلمين بدون بصيرة. لكن يتم بالقوة، وهي شيء آخر غير العنف. ولا تتنافى القوة مع الرفق الذي يؤتي الله به ما لا يؤتي على العنف كما جاء في الحديث الشريف. لا بد من القوة الفاعلة قذفا للحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

من العنف الإسراف في سفك الدماء وقطع الأيدي في ظروف انتقالية هي أحوج إلى استماع الأمر النبوي بدرء الحدود بالشبهات. من العنف والإخلال المريع بالشريعة ورفقها وحكمة حدودها أن تسارع إلى سفك الدماء في ظلمات الشك في براءة الجهاز القضائي المورث عن الفتنة. كيف تسارع إلى القطع والسفك ومن القضاة والأعوان مرتشون أشد ما يكون الارتشاء فظاعة.

إذن تتحول الشريعة وسيلة لقمع المستضعفين ويخرق حدود الله من يقدر على الدفع. متى جلس جند الله المتقون على منصة الحكم وطهرت الأجهزة من أوبئة الارتشاء والمحسوبية والمحاباة، وانقشع ضباب الشك وظلامه عندئذ يحق للقضاء أن ينظر في صغائر الجرائم. كبائرها الإفساد في الأرض، وأي إفساد أفسد من الرشوة والمحسوبية وما في ركابيهما من رذائل طبقية؟ من العنف أن تقطع يد مجرم سرق مالا ومتاعا، ويرتع سارقو الأمانة، الخائنون لذمة الأمة، في عتمات المنصب السلطوي. بعد إزالة الظلمة وشكها يبقى أيضا مجال لرفق الإسلام ودرء الحدود بالشبهات.

إننا بعيدون عن نظرية كسر جهاز الدولة الموروث وعن الإفناء الجماعي يمارسه «الشعب المسلح».

أفهي إذن إصلاحية؟ أثوريون نحن أم إصلاحيون؟ سؤالان يلحقان بالذهنية المختلطة التي تتحدث عن ديموقراطية إسلامية، واشتراكية إسلامية. رحم الله مصطفى السباعي أستاذ أجيال المسلمين وأجزل له المثوبة ورفع درجته، فقد كانت نيته عالية حين تحدث عن اشتراكية إسلامية. لكننا نحب الوضوح في التسمية لئلا يُغتال المسمى من خلف هذه المتاريس المفهومية التي يحشرها الأعداء ليصدونا عن سبيل الله.

إنها القومة الإسلامية، من مادة قام القرآنية في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[1]، وقوله جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾[2] لا إصلاحية «Réformisme» ولا الثورة «Révolution» وهما ممارستان من غير

(1) سورة الجن، الآية: 19.

(2) سورة المائدة، الآية: 8.

واديناء تعبران عن قذف الباطل للحق، لأنهما تستمدان من مادة أرضية بشرية يتقابل في عالمها النقيض الأرضي بالنقيض الأرضي. أما أمر الله عز وجل، والقيام المفروض على الأمة لتنفيذه فمادتهما الإيمان بالله ربا، وطاعته إلهـاً، والجهاد من أجل شريعة رسول الله ﷺ منهاجا، وقياما ضد كل باطل لمحقه.

إذا كانت الثورية اللينينية تركز على صنع الجهاز الحزبي المنضبط، وعلى السحق الثوري للعدو الطبقي، وعلى تأميم الاقتصاد، لتتم بكل ذلك تعبئة الجهود تحرق المراحل التاريخية، فإن القومة الإسلامية ترتكز قبل كل شيء على تربية المؤمن المأمور بالقيام، ثم على تأليف الجماعة المؤمنة المخاطبة بالقرآن المكلفة بتنفيذ أوامره، ثم على تطبيق شرع الله في الأموال والأنفس والسياسة والاقتصاد بنفس الروحانية والصدق المطلوب إلى كل مؤمن فرد أن يطيع ربه بهما في الصلاة والحج والتبتل والمناجاة.

إن تربية جند الله على الإيمان، ورفع هممهم إلى ذرى الإحسان، وإيقاظ قلوبهم لمعاني حب الله ورسوله، والجهاد في الله، والسعي إلى مرضاته، وتربيتهم على العمل الجماعي، والشورى، والطاعة في غير معصية والعصيان لمن لا يطيع الله، لهي أقوم طريق لتسليح الإرادات بالعزم، والعمل بالفعالية والفعالية بالقوة التي من شأنها أن تزحزح الباطل وتصرعه دون أن تهدم البيت على رؤوس الأمة بما فعل مجرموها كما توصي بذلك الإستراتيجية الطبقية.

نظرية تقول بهدم البيت ليأتي البناء الجديد على الأنقاض. فماذا إذا كانت عناصر البيت بشرا يرجى أن يحيوا من موات الإلحاد، ويستفيقوا من سبات اللامبالاة، ويتطهروا من رجس المعصية، ويتقووا بالتوبة والإيمان من الغثائية؟

إن سيرة رسول الله ﷺ تعطينا نموذج القومة بالقوة المقاتلة الشديدة إن اقتضى الأمر، لكن بالرفق الدائم الرحيم، رفق «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

إن التقدمية الاشتراكية، وعلى متن دعواها تركب القومية العربية تتحرك حول نقطة واحدة هي إلغاء الدين.

وإن القومة الإسلامية تعني حمل رسالة الله للعالمين، رسالة تخبر الإنسان بمصيره إلى الله، تعلمه الآخرة وجزاءها، تعرفه بالله عز وجل وبما أعد لأحبابه من نعيم ولأعدائه من نكال. لكن حمل الرسالة الإسلامية، لكن الحديث إلى الإنسان عن الآخرة ودعوته إلى الله عز وجل، إنما مسرحها الدنيا. والدنيا دار دفاع الله الناس بعضهم ببعض.

فشرط القومة أن يتقدم جند الله بنموذج الجهاد في سبيل الله والمستضعفين ليحل معناه ومغزاه في نية المسلمين وفي غدهم المشرق بإذن الله مكانا تعششت فيه إيديولوجية الصراع والاستكبار باسم تحرير الشعوب، ويحل السلام الإسلامي محل سلام الرأسمالية التي تعطي سدنتها أمنا ليتفرغوا لقتل الإنسانية.

والله غالب على أمره، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

الفهرس

تقديم: الطريق المعتمة 5
بين الإلحاد والثورة 10
التفسير والتغيير 13
الدنيا والآخرة 16
الدولة العظمى 21
ما هي الماركسية 26
«ولا يحض على طعام المسكين» 31
الملكية الخاصة 36
مهمة البروليتاريا 41
تقنيات الثورة 46
عوامل الثورة و«نظامها» المغلق 51
الطبقة التي تمسك المستقبل بيدها 56
«الإرهاب أداة إقناع» 61
«سر علمي» 66
«العنف الهستيري» 71

الوحش الكاسر 76
الإرادة الفولاذية 81
كسر آلة الدولة 86
برنامج الدولة الاشتراكية 91
اضمحلال الدولة 96
جنة ماركس 101
«لا يعجبني وجهك اليوم» 106
الرعب الثوري 111
إعادة التربية بالعمل 116
مجتمع الصراع الطبقي 121
قلعة الثورة 126
الممارسة معيار الحقيقة 131
الخاتمة 137
الفهرس 146


دار أقدام للطباعة والنشر